www.awu.sy

الأسبوع الأدبي

الثقافة ثراء وسيرورة لا تنتهي

الأسبوع الأدبي - "السنة الثلاثون" العدد: "1636" الأحد 2019/4/21م - 16شعبان1440هـ

16 صفحة

25 ل.س

جريدة تعنى بشؤون الأدب والفكر والفن تصدر عن اتحاد الكتاب العرب في سورية

في الذكرى الثالثة والسبعين للجلاء

•د. علي دياب ـ ص3

صور من نضال شعبنا في سبيل الجلاء

•غسان كلاّس ـ ص5

اللُّغة الحواريَّة في شعر عبد النَّبي التَّلاوي..

• د. وليد العرفي ـ ص4

للأزمة مخرجها الواعد

• حسن إبراهيم أحمد ـ ص6

•مالك صقور

كلمة أولى

في ذكرى الجلاء

اليوم تطفئُ سورية ثلاثاً وسبعين شمعة وتقطف ثلاثاً وسبعين وردةً وتعلّق على صدرها ثلاثةً وسبعين وساماً.

إنه عيد الجلاء

عيد الزهوّ والفخر والنصر،

عيدٌ دحر السوريون المحتلّ الغاصب الغاشم، وكسروا نيْر الاستعمار، وتنسَّموا ريح الحرية، وحققوا السيادة الوطنية.. يومَ السابعَ عشرَ من نيسان.. هو الفجر الجديد الذي بشّر بولادة جديدة لسورية..

واليوم، يقتضي الوفاء أن نذكر، ونحيِّي ونُحيي ذكرى الشهداء الذين استُشهدوا من أجل هذا اليوم العظيم، وعلينا أن نذكر بالعِرفان والتقدير وعظيمِ الشكر والامتنان الشهيد يوسف العظمة الذي قال:

«إني أعرف ما يجب عليَّ، وسأقوم بواجبي، ولستُ آسفاً على نفسي، بل أسفي على الأمة التي ستظل سنوات كثيرة أو قليلة، هدفاً لكل أنواع المحن والمصائب، وإني مع ذلك مطمئنٌّ إلى مستقبل الأمة، لما رأيتُه وخَبَرْتُه بنفسي من قوة الحياة الكامنة فيها»..

هذا ما قاله البطل يوسف العظمة لرفاقه ليلة الثالث والعشرين من تموز عام 1920. وكان قد قرّر الذهابَ إلى ميسلون في اليوم التالي. وكان يعلم علْمَ اليقين أنها ستكون معركةً غير متكافئة، ويعلم أنه سيُستَشْهد، وقد استُشهَد. ولكن أبى، وكأيِّ قائد عظيم أن يدخل المستعمر الغازي دمشقَ من غير مقاومة. وتلكم، لعمري، مأثرةٌ عظيمة؛ مأثرةٌ ودرْسٌ للأجيال التالية.

كما تقتضي الأمانة أيضاً أن نذكرَ رفاق يوسف العظمة في دمشق، وبقية المحافظات، فقد التقى يوسف العظيمة الشيخ صالح العلي سيراً في قرية (وادي العيون). واتفقا، وخططا، ونسقا بشأن المعارك التالية، والطريقة التي يجب أن تُتَّبع، وكيف تُؤمَّن الأسلحة والذخيرة، وتآزرت ثورةُ الجنوب بقيادة سلطان باشا الأطرش، مع الشمال بقيادة إبراهيم هنانو، والتهبت الغوطتان، بقيادة حسن الخراط. وكذلك يقتضي الوفاء أن نذكر ونحيي ذكرى رجالات الاستقلال وعلى رأسهم فارس الخوري الذي لعب دوراً مُهمّاً في الأمم المتحدة ومجلس الأمن من أجلَ الاستقلال. وهكذا كُتب اسم سورية على جبهة المجد والتاريخ بدماء الشهداء الذين رَوَوا الترابَ الذي أصبح حِنّاءً، وأنبت شقائقَ النُّعمان على امتداد الجغرافيا السورية.

عيدُ الجلاء.. عيد النصر الأول للثورة البِكْر الحقيقية ضد الاستعمار، وضد التبعية، وضد الجهل والتخلف..

عيدُ الجلاء كان الدرس الأول، في المدرسة الأولى للسيادة الوطنية.. يتزامن عيد الجلاء هذا العام، والجيشُ العربي السوري الباسل، يدحرُ آخرَ بؤر الإرهاب التكفيري، ويطهّر الترابَ السوري من رِجْسهم وقذارتهم، بعد حرب استمرت ثماني سنوات كانت أصعبَ وأخطرَ وأشرسَ وأقذرَ حرب عَرَفَها تاريخُنا: القديمُ والحديثُ.

وفي يقيني، كان من أهداف هذه الحرب العالمية الإمبريالية على سورية، ومن قَبْلُ على العراق، والآن على اليمن، هو القضاءُ على حضارتنا وثقافتنا، وتدميرُما نمتلكُه من ميراث حضاريٍّ، ثقافيٍّ عظيم ميراث ضارب في عمق أعماق التاريخ، وفي الوقت نفسه لتحقيق الحلم التلمودي بإنشاءِ الإمبراطورية التلمودية، من الفرات إلى النيل.

ولكن صبْرَ الشعب السوري وصمودَه الأسطوريَّ وبطولتَه المعجزة، أفشلت جميع مخططاتهم، وأعادت إلى الكرة الأرضية التوازنْ، وأدّت إلى غروب القُطب الأوحد وأفوله.

لقد كانت سوريةُ وما زالت، وستبقى قلعةَ الصمود والتصدي والتحدي على الرغم، من كل الجراح، على الرغم من كل المعاناة، على الرغم من كلِّ الحصار وخَلْق الأزمات، وعلى الرغم من كل أنواع العدوان وأشكاله الإرهابية ومهما اشتدّت المخاطر والخطوب، ومهما ضغطت الإمبريالية وعملاؤها فإن سورية لن تستسلم، ولن تركع، كما قال السيد الرئيس بشار الأسد الذي يشقُّ الطريق إلى النصر بشجاعة منقطعة النظير، وصلابة فولاذية، مستلهماً ذلك من قوة الشعب وثباته، وهوَ الذي قال:

«خلف كلِّ فرحة نعيشها تقفُ أسرةٌ فقدت عزيزاً من أجل أن تحيا باقي الأسر، وجريحٌ فقَد جزءاً من جسده، ليحفظَ باقي الأجساد».

عاشت سورية.. والنصر بشعبها وجَيشها وقائدها

والمجد للشهداء.

الحرب في نماذج من الشعر العربي المعاصر (٢-٣)

•صالح عوض أحمد حماد

إنَّ الوقوف على صورة جزيئية من هذه المقطوعة يُسهم في تحليل عناصرها المركبة، وتبيان قوانينها التي تصهر العالمين: عالم الواقع المادي وعالم الشاعر الداخلي في وحدة متناسقة، قد تبدو غريبة عن قوانين الترابط الدلالي المألوف(1)، ويؤسس الشاعر هذا الترابط من أربع وحدات لغوية هي: الحِرب، الأمكنة، تستيقظ، فيك. فقد ربط الشاعر الحرب بمثير اصطناعي يؤدي إلى اختراق الجسد الآدمي، والمكوث فيه، وتخيَّر في ذلك الترابط استخدام فعل مضارع للمستقبل، مناقض للطبيعة الدلالية للدال الأول، وهو (تستيقظ) (حركة + إرادية + الانتقال من مكان إلى آخر)، فحطم هذا الترابط القوانين الدلالية المألوفة، حيث ربط الشاعر الجامد بالمتحرك من خلال (الحرب) وفعل المضارع (تستيقظ)، ولن يجد المتلقي في المعجم هذه الدلالة، بالنسبة للدالين الأول والثاني. ولم يقف فعل التحطيم عند هذا الحدّ، وإنما تعداه إلى ربط فعل المضارع من جديد، بدال ثالث لا علاقة له بخط المكان في لغة المحكي اليومي، وهو (فيك)، فولدت هذه الإضافة تعقيدًا دلاليًا، أتاح للشاعر تحويل مكان دال الحرب من انطباع عام يسود عناصر الواقع الرائي إلى انطباع خاص يرقد في ضمير الآدمي، ممَّا يجعل العالم الداخلي أكثر فاعليَّة من العالم الخارجي في استبطان الأشياء وإعادة صوغها في تراكيب فنية مُبتكرة.

وإذا كانت الصورة الجزئية السَّابقة امتداداً إلى صورة موسَّعة تشترك العناصر الأخرى في تكوين النَّص الشعري؛ فإنَّ تأثير هذه الصُّورة يتضاعف مع استمرارية الدَّوي، فتصبح مهيَّأة للتمدد والانفتاح على أمداء جديدة، تتجلى في المقطع التالي:

تَكتُبُ
وتَقرَأُ . . .
تتأمَّل مَطراً يَذوبُ في أحشَاء الأرض
فيمَا الدَّوي يَعوي خلفَ رَأسِكَ . . .

قَذِيفَة تَسقُطُ في الجِوَار
تَنثرِكَ كمَا فعلت السَّابِقَة . . .

لكنَّك تَجمَعُكَ مُجَدَّداً منكَ . . .
يَطِيرُ العُصفُورُ
والجِنَاحُ يَشتَعِلُ . . .
ويَطِيرُ
ويَشتَعِل . . .

هي الحَربُ . . .(2)

يُنَافس التوالي الكمي والكيفي للأفعال المضارعة القوة التعبيرية من الناحية الأسلوبية، إذ إنها تختزل مساحة النسيج اللغوي، وتختصر مساحة التشكيل الفني في تأسيس عالم شعري قائم على الحركة والتوتر، واستثمار القصيدة معطيات هذه الأفعال، وطاقاتها الوجدانية والجمالية التي توحد الذات بالموضوع، والخاص بالعام، يكاد يفتحها على مدارات متباينة من الإبداع، تنظم مسيرتها، وتؤكد على شرعيَّة ما يجري من أحداث سوداوية، فتراص الأفعال المضارعة (تكتب/ تقرأ/ تتأمَّل) إلى جانب بعضها بعضاً من دون أنْ يقطعها عارض ما يعتور طريقها الدلالي، هو تشكيل أسلوبي يقود الحركة الديناميكية نحو التطور والتجدد، ممَّا يحتم علينا النظر إلى زمنها من منظور حداثي، فقد لا تكسب صدارتها من تجسيد المفارقة الدرامية بين مجموعة العناصر المتضادة التي تطفو على سطح الواقع المادي، إذْ يمكن لكل واحد منها أنْ «يسدَّ مسدَّ الماضي أو المستقبل أو يمتد بينهما، لأنَّ الحدود الزمانية تتحطم، ويسير ما بها في كل الاتجاهات، فيختلط الماضي بالحاضر والمستقبل، أو يتبادل كل منهما مكان غيره لأنَّ صيغة المضارعة لا ترتبط بزمن معين»(3).

وعدم ارتباط صيغة المضارعة بزمن محدد، يقيِّد إسارها الدلالي، يكاد يشحنها بقيم أسلوبية تعبِّر عن حالة منشئها الانفعالية إزاء الحرب، فدلالاتها الطازجة أكثر شيوعًا وألفة من دلالاتها المألوفة، إذ ينذر استخدامها في سياقها المألوف (قراءة نص مكتوب أو كتابة نص مسموع مثلا)، وأنه غالبًا ما يستخدمها في سياقات جديدة من شأنها توسيع فضاء الخلق الإبداعي، وتعميق نفس الشاعر الدرامي إبان وصف مشهد الحرب على نحو سردي، إلا أنَّ حيويَّة الفعل الأخير (تتأمَّل) منها، تقع في كونه عنصرًا جامعًا بين المطر والأرض كعناصر متجانسة، يجمعها رباط دلالي حسِّي يشدُّها نحوه. إلا أنَّ هذه الحسِّية يُغيِّبها الشاعر بدافع قصدي، تخضع فيه إلى عالمه الداخلي في الانتقال للفعل المضارع التالي (تعوي)؛ لتصبح العلاقة بين الدوي والرأس علاقة غير متجانسة، ومردُّ ذلك إلى التصاقها بحالة الشاعر النفسية، فاهتزاز حالة الشاعر النفسية وفقدان اتزانه إزاء الحرب، يسهم في استبطان الرؤية الداخلية لكثير من الأشياء والمظاهر الطبيعية، فالواقع المادي لا يتسع إلى تحقيق رغائب الشاعر وامتثال آماله البعيدة، وبالتالي؛ فإنَّ إعادة ترتيب أوضاعه وعناصره على نحو جديد، يقيم عالمًا مثاليًا يُواري عن نشاز الواقع المادي، ويمنح عالم الشاعر الداخلي مساحة لغوية كبيرة ينفث فيها من روحه في قيعان الأشياء، ليخلقها خلقًا آخر، يعدل الانفعالات التي أنتجتها التجربة الشعرية والشعورية، كما هو الحال في قول الشاعر:

قَذِيفَة تَسقُطُ في الجِوَار
تَنثرِكَ كمَا فعلت السَّابِقَة . . .

يستعمل الشاعر التصوير الاستعاري استعمالًا رمزيًا، يحافظ على هيكله البلاغي القديم، إلا أنَّه يهمل وجه الشبه الحقيقي بين طرفي الاستعارة، لتظل تسبح في محيط الدائرة اللغوية، وتحافظ على معطياتها السياقية التي تقبل التجدد والانبثاق في شكل جديد يعمِّق حقلها الدلالي، وما أنْ يجرِّدها الشاعر من كثافتها المادية، ويضفي عليها قيمًا معنوية، يجعلنا نستسيغ اختراق الجسد الإنساني واندثاره في فيافي الأرض إلى شظايا متناثرة، فهذا التناثر نتيجة تطاير الاستعارة وتجزئها في حدود الجملة الأدائية، ويمكن الإفادة منه واستثماره -فيما بعد- لصالح صورة رمزيَّة أخرى، تدلُّ على بعث الإنسان تموزًا، وعودة روحه إلى الحياة من جديد، ليخرج من صلبها عصفور لا يتغنَّى على غصنه الميَّاد، لأنَّ إيقاع الحياة المهترئ لا يسمح لذلك الغناء أنْ تمتدَّ أصداؤه، فتشعر الإنسان بالحنو والدفء، وبالتالي؛ فإنَّ اشتغال جناح العصفور، مع مواصلة التحليق في فضاء السَّماء، يعني أنَّ تقلبات الحرب لا تقف عند حدٍّ ثابت يقيِّد حركتها العمياء، ويخفف من غلوائها التي تحيل العمران الحضاري إلى خراب مُريع يطارد كهنوت الروح، ويطيح بها نهاية الطريق، ولا يكترث بما فعل من سطوة وشناعة.

يقول الشاعر:

هي الحربُ
وَقتٌ لا يُكترثُ بِمَا تُحب . . .
يَنفَجِرُ في رَأسِكَ نَاراً
وقَذَائِف . . .
تسرقُكَ من مقعَدِكَ قُربَ النَّافِذَة
واستَمَاعِكَ المُطمَئِنُ للمُوسِيقَى . . .
وتسرقُكَ من رَائِحَةِ النَّعنَاع
وألوان الوَرد في الأَقمِصِ المَنزِلِيَّة . . .
وتَسرِقُكَ مِنَ أوراقِكَ
وصُوَرِكَ
ومَوجِ البَحر
وطفولَتِكَ البَعِيدَة
وأحَادِيثِ المقهَى . . .(4)

إنَّ الإفادة من العناصر الدرامية، لا سيَّما الطابع الحلزوني في تشكيل النَّص، وإنتاج دال الحرب في صور مستقلة، ينظمها خيط شعوري، يعزز تماسكها؛ لتصبح هي الرؤية الشعورية الأولى التي تنبثق منها كل دقات القصيدة على الدوام، يجعل كلَّ دقة منها تبدأ من نقطة الانطلاق الأولى (الحرب)، و«يدور الشاعر فيها دورة كاملة يستوعب خلالها الأفق الشعوري الذي يتراءى له، لكنَّ هذه الدورة وإنْ صنعت دائرة شعورية كاملة تظل مع ذلك غير مغلقة على ذاتها»(5)، وهذا سر جدَّتها.

واتكاء الشاعر على الجملة الاسمية ((هي الحربُ)) في إنتاج الرؤية الشعورية الأولى، والكشف عن وقعها النَّفسي، يخلق من سديم الحرب صورًا كليَّة، تمور عمَّا يعتمل في شواغل الشاعر من أحاسيس مبهمة، وأفكار باطنية، تسير إلى المتلقي مدجَّجة بالكثافة والتوتر اللذين يناسبان مناخ الحرب السوداوي. وهذه الكثافة لا تنبع من شواغل الداخلية فحسب، إذ إنَّ إسقاط ركيزتي اللغة والتخيُّل للإيقاع في قصيدة النثر كفيل بأنْ يشحن فضاءها الرؤيوي ويحقق مآرب الشاعر الدلالية؛ فاللغة تزاحم الإيقاع في مكانتها من وعي الشاعر وذائقته الشعرية، ممَّا أتاح لها مساحة دلالية واسعة في تشكيل علاقة الدال بالمدلول، وهذه اللغة غدت على يد الشاعر لغة ثانية، وذلك بسبب انفتاحها على احتمالات مجازية تنطوي على مقدار فسيح من الغليان والثورة والتحدي.

وامتياح بسيسو من ينابيع اللغة التفجيرية في الوقوف على شوائب الحرب وانتكاساتها كثيرًا ما يجذب ذائقته الشعرية لأنْ تطيل التأمل، وتسترسل في التخيُّل، فتزيح معاني بعض الألفاظ، وتعتقها من مواضعاتها المعجمية، لتدرَّ فيها شبكة من المعطيات الدلالية والمعاني الجديدة التي ترتبط بذاكرة الشاعر ومخزونه الثقافي، ومن قبيل ذلك انزياح الحرب عن دلالاتها الموضعية إلى دلالات جديدة توغل في الزمن، وتخلع على نفسها من صفاته ما يعمق أوارها، ويكتنه أبعادها في إيصال علاقات نفسية تنبثق من مشاعر الشاعر الغائرة، وهذا الانزياح -كما يرى علماء الأسلوب- لا ننظر إليه على أنَّه «رخصة شعرية أو ابتداع فردي، وإنما هو في الواقع نتاج براعة استخدام المادة اللغوية المتوفرة، وتوظيفها الذكي للإمكانات الكامنة في اللغة»(6).

ودال الحرب إذ يسري في أمداء النص كإشارة سيميولوجية؛ فإنَّه يسهم في استيلاد معان جديدة، تثير في نفوسنا سلسلة من المشاعر الغائرة التي تدفعنا إلى الاحساس بأنَّ وراء القصيدة عالمًا خفيًا يتغذى على رواسب شعورية ولا شعوريَّة، امتاح من عبابها الشاعر في بناءه صوره الفنية، فارتطام الوقت كنار مشتعلة في رأس الآدمي، يشاركه في دمامة الفعل سيل القذائف المتراكمة، ممَّا يكسر توقعات المتلقي، لأنَّ عامل الوقت لا يستطيع الانفجار والاشتغال داخل الرأس واقعيًا، وبالتالي؛ فإنَّ استعمال المصاحبات اللغوية غير المألوفة في إيصال المعاني المجرَّدة سبيل الشاعر في قلب المعادلة أنطولوجيًا بعدما أصبح الواقع غريبٌ عنه، وهو غريبًا فيه.

إنَّ إعادة الشَّاعر بناء الكلمات على نحو جديد، يستشف جهامة العالم المأساوي الحاضر، يجعل الصور الشعرية تنثال بين الأسطر الشعرية في إهاب تلقائي، يخلو من المنطق أو التعقيل، كما في العبارات الآتية: (الحرب وقت، ينفجر في رأسك نارًا وقذائف، تسرقك من مقعدك). هذه الصُّور الغريبة لا تبدو ناشزة عن التكوين الواقعي أو بعيدة عن مواضعاته، ذلك أنَّها تنوء وتوحي إلى بقائه على واقعيَّته، وتلك خصيصة سيريالية أفاد منها الشاعر في مطالعتنا عن الصِّلات الحسِّية والفعلية في العالم، وتبدو هذه المطالعة أكثر وضوحًا في السَّطر الشعري التالي:

تَسرقُكَ من مقعَدِكَ قُربَ النَّافِذَة

ينزاح الفعل المضارع (تسرق) عن دلالته الموضعيَّة إلى دلالات جديدة، يصوغها الشاعر في جمل تعبيرية تتصل بدال الحرب، ولا تنحرف عن نسغه قطُّ في التهام جسد الإنسان الفلسطيني الذي يحاول عبثًا النجاة من هُوَّة العدم، وأولى هذه الدلالات تشخيص دال الحرب في هيئة إنسان يجيد سرقة أخيه الإنسان من مقعده الذي اعتاد الجلوس عليه، وتعمد هذه السَّرقة إلى المدركات الحسِّية في إيصال المعاني المجرَّدة في حمولة إيحائية، تومئ إلى قلق الإنسان المثقف وغبش تفكيره الإيديولوجي، وتعكر مزاجه إبان الاستماع إلى الموسيقى الهادئة، فإضافة الاسم المعرَّف بال (المطمئن) إلى الاستماع، يُشير إلى أنَّ ذائقة الشاعر الشعرية لا تستطيع الإصغاء جيِّدًا لأوتار القيثارة الموسيقية، فالحرب تتقن العبث بضمير الإنسان والأشياء التي تقترب منه سواء أكانت حسيَّة كالورود والنَّعناع والأوراق أم معنوية كالطفولة البعيدة والمسامرة في المقهى، ممَّا يهز استقرارهما الدلالي.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ التوسُّل بتكرار الفعل المضارع (تسرق) على نحو تجاوري، ملاذ الشاعر في النهوض بالقصيدة وإحكام علاقاتها السياقية، فثمَّة لذة شعرية تخلقها بنية المجاورة، وتنبع هذه اللذة من كونها تعمد إلى عنصري التمدد والانتشار في توسيع حدقتها الدلالية. أما من النَّاحية الأسلوبية؛ فإنَّ «السِّمات الأسلوبية التي تفجِّرها بنية المجاورة التكرارية أثناء علاقاتها السياقية من خلال مفردات البنية اللغوية، فإنها دائمًا تحوِّل التماثل السَّطحي والإيقاعي إلى تماثل يؤكد حركة المعنى السِّياقي ويقويه»(7)، فالجمل الفعلية التي يفتحها الشاعر بفعل المضارعة (تسرقك) لا تكتسب حداثتها من التماثل السَّطحي الإيقاعي فحسب، إذْ إنَّ تلاحمها وتنافرها عن بعضها بعضاً إيقاعيًا، إضافة إلى انحراف تراكيبها عن معانيها الأصلية إلى معان مجازية أخرى تضاف إلى دلالاتها الأصلية أسهم في تحويل هذا الشكل التماثلي إلى تماثل دلالي يعمِّق حركة المعنى داخل السِّياق ويعمل على تقوية علائقه، فالحرب لا تستطيع انتشال الآدمي، ولا سرقته من بين أوراق النَّعناع وألوان الورود إلا إذا نجحت في كيفية مُقايضته والسيطرة عليه، وبالتالي؛ فإنَّ تخصيص السطر الثامن بقوله: «وألوان الورود» دون تحديد واحد منها إبان عملية الخلق الإبداعي، يقودنا إلى التأويل بأنْ تباين ألوان الورود يؤثِّر على أعصابه قبل أعصاب المتلقي، ذلك أنَّ حياته الإنسانية ستنتهي بالهلاك إذا لم يبتكر طريقة يخرج فيها من مأزق الحرب، يقول الشَّاعر:

أنتَ الآنَ بَينَ كَفَّيكَ
تَكتبُ وَقتَك
عَلَّكَ تُنقذكَ من صَخبِ القَذِيفَة . . .
تَستَدرِجُ التَّفاصِيلَ إليكَ
والذَّاكِرَة . . .
وتُمعِنُ في تأمل هَذا الوقت
عَلَّكَ تَخرجُ منكَ دُونَ جُرح
ويَخرجُ الجُندِيُّ من فَضَائِكَ
مُصَابا باليَأسِ . . .
والحسرَة . . .(8)

وإذا كان خروج الجندي من فضاء الإنسان المنتهك تحتَ أوار الحرب فيه شيء من الإحباط؛ فإنَّ هذا الإحباط يزجُّ بالشاعر إبراهيم نصر الله إلى إسقاط الضَّوء على الجانب المعتم من حياة الجنود إبَّان الحرب، وتصوير ما يجول في أقصى أعماقهم من هواجس وتأمُّلات، يقول الشَّاعر:

يا أيها الجندُ فانتشروا
ليكن خندقُ الحرب أبيضَ مثلَ سريرٍ فسيح
وكلْ بساطيركمْ لامعة(9)

تحيل إشارات اللَّون الأبيض التعبيرية إلى السلام، والانتقال من جلجلة الحرب إلى الترفُّل والدِّعة، ليصبح خندق الحرب المفترس ملاذًا للنَّوم والخلد. ومع أنَّ خندق الحرب ضيِّق للغاية، ولا يتسع للافتراش؛ فإنَّه يتسع إلى راحة الجنود، مثلما يتسع إلى أنْ يكون جنة غناء. وهذا الاتساع يُبطل عن طريق الصفة في المزاوجات المجازية فاعلية الدمار والخراب، ويمحق أبدان البشر ويفتك أجسادهم البريئة، فالتصاق صفة (فسيح) بالموصوف (سرير)، يمنح الصفة درجة عالية من الدهشة والابتكار اللتين لا تقلان أهمية -من الناحية الأسلوبية- عن استغلال الصفة اللونية، فكلاهما يسهم في إثراء اللغة الشعرية، والإبانة عن حالة الجنود النفسية إبَّان الحرب، وهي حالة هادئة، لا يخالطها شيء من الاضطراب، آية ذلك أنَّ بساطيرهم النظيفة لم تمسخها آثار الكرِّ والفر، وكأنَّها على أهبة الاستعداد لاستقبال ومضات الجمال، والخلاص من نير الحرب.

وفي قصيدة أخرى للشَّاعر نفسه بعنوان ((الجندي))، يتغلغل الشَّاعر في أعماق وعي الجندي، ويتقصَّى تجربته المعيشيَّة، فيستخلص منها صور الحياة التي يطمح إليها، وهي التجرُّد من آلة الحرب، والعيش في فضاء مكاني يقطنه الانتشاء بالفرح الغامر، حيث ينْزع بزَّته العسكرية، ويبقى بسرواله الأبيض، يقول الشَّاعر:

على ضفة النهر ينثُر أشياءَهُ
البنادقُ مَهملةٌ
والخنادقُ يغمرُها الوقتُ والرملُ
ينظرُ صوبَ الجهات البعيدة
يخلعُ بزَّته باحتشام!
ويجلسُ فوقَ الصخورِ بسرواله الأبيضِ المُتهدِّل
يغمسُ رجليه في زبدِ الملِ المترهِّل
يُنشدُ أغنيةً باتزانْ!!(10)

---

1 - د. محمد بنّيس، ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب، دراسة بنيوية تكوينية، ص171، دار العودة، بيروت، ط1، 1979.

2 - إيهاب بسيسو، كأنَّك تراه، ص-14 15.

3 - أ.د. عدنان حسين قاسم، لغة الشعر العربي، ص57، الدار العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006.

4 - إيهاب بسيسو، كأنَّك تراه، ص16.

5 - عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضاياه الفنية والمعنوية،ص-223 224، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط5، 1994.

6 - د. رجاء عيد، البحث الأسلوبي،المعاصرة التراث، ص-229 230، منشأة المعارف، الاسكندرية، 1993.

7 - إسماعيل أحمد شحادة العالم، التشكيل المكاني البنائي لظاهرة التكرار في شعر جرير، ص98، مجلة جرش للبحوث والدراسات، جامعة جرش، مج(3)، ع (1)، 1998.

8 - إيهاب بسيسو، كأنَّك تراه، ص17.

9 - إبراهيم نصر الله، الأعمال الشعرية، ص395، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1994.

10 - نفسه، ص47.

في الذكرى الثالثة والسبعين للجلاء

•د. علي دياب

لكل شعب على وجه هذه البسيطة، تقاليد في الاحتفال بعيده الوطني، فاحتفالنا بالعيد الوطني في الجمهورية العربية السورية، هو يوم السابع عشر من نيسان لعام ستة وأربعين وتسعمئة وألف، ففي هذا اليوم تم جلاء آخر جندي فرنسي عن أرضنا، وتحقيق الاستقلال السياسي الناجز، فحقق القطر العربي السوري الأسبقية في نيله الاستقلال بالنسبة إلى بقية الأقطار العربية، ولم ينكفئ على نفسه، وإنما انطلق ليقوم بما يترتب عليه في مساعدة الأشقاء العرب في نضالهم ضد المستعمر، ولاسيما أنه يشكل القلب من هذه الأمة، وما عرف عن قطرنا العربي السوري، أنه لم يفصل نضاله الوطني عن نضاله القومي، بل وكان سبّاقاً في تبنيه للقضايا القومية العربية على امتداد ساحة وطننا العربي الكبير، فكان المستعمر يغادر الأرض التي يحتلّها شكلاً، إلاّ أنه يعمل وبصيغ مختلفة لإبقاء هذا البلد أو ذاك تحت وصايته، من خلال ربطه به باتفاقيات عدة، ولاسيما الاقتصادية منها، إلا أن قطرنا العربي السوري، استطاع وبفضل نشوء حزب البعث العربي الاشتراكي في الفترة نفسها، أن يحقق استقلاله التام، وأن ينجز قيام أول وحدة عربية في القرن المنصرم عام ثمانية وخمسين وتسعمئة وألف بينه وبين القطر العربي المصري، في إطار الجمهورية العربية المتحدة، إلا أن هذه الوحدة أقلقت الكثير من القوى الإقليمية والدولية والرجعية العربية، التي تتناقض مصالحها مع دولة الوحدة، وبدؤوا في التآمر عليها، واستطاعوا النيل منها وإسقاطها في جريمة الانفصال في الثامن العشرين من أيلول سنة إحدى وستين وتسعمئة وألف، ونظراً لهذا الموقف القومي لدولة البعث، وما حققته من انتصارات كثيرة وعلى مختلف الصعد السياسية والاقتصادية والاجتماعية، بقيت هدفاً للقوى المتربصة بها، فها هي ذكرى الجلاء تحل هذا العام وقطرنا ينهي عامه الثامن في مواجهة الإرهاب، القادم من جهات الأرض الأربع، وبدعم عشرات الدول من عربية وإقليمية ودولية، وبلغ هذا التآمر ذروته، إلاّ أنه لم يحقق ما هدف إليه من حيث إسقاط الدولة العربية السورية، لأنها تشكل القاعدة الأساس لمحور المقاومة والممانعة للمشروع الصهيوني الأميركي في المنطقة، وبكل أسف يوظف الغرب الاستعماري عملاءه من الأنظمة العربية، وبالنيابة عنه مستخدمين مليارات الدولارات للتآمر على هذا القطر، وكما جاء على لسان حمد بن جاسم وزير خارجية قطر السابق في أنهم دفعوا أكثر من مئة وسبعة وثلاثين مليار دولار، من أجل إسقاط الدولة السورية، ولكنهم فشلوا ولم يحققوا سوى تدمير البنى التحتية لهذا البلد الصامد وسقوط آلاف الشهداء في مواجهة هذه الحرب التي ما كانت إلا كرمى عيون الكيان الصهيوني، هذا الكيان الغاصب الذي كان ما يسمّى بالربيع العربي من أجله، فاستهدف الجيوش العربية والقوى كافة التي كان يخشاها، وتحت عناوين ما أنزل الله بها من سلطان مثل الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان وغيرها، وكأنّ هذه البلدان العربية وذات الأنظمة الجمهورية، والتي على الأقل يوجد فيها انتخابات ومؤسسات وبرلمانات تمثل الشعب في هذا القطر أو ذاك، أما المشيخات والممالك التي لم تشهد انتخابات واحدة حتى الآن، فهي غير معنية بما سموه ربيعاً عربياً، لأنها تنفذ المطلوب منها دون أي اعتراض، من الأسياد في الغرب الأميركي والأوروبي وربيبتهم «إسرائيل» وإن ما يجري اليوم في الجزائر بلد المليون شهيد، وكذلك في السودان الشقيق الذي لم يشف غليلهم منه بعد انفصال جنوبه عنه، فما يجري في هذين البلدين هو استكمال للمخطط الموضوع، إلا أن هؤلاء نسوا أن سورية العروبة، ليست كغيرها من الدول العربية، التي استطاعوا إسقاطها بسهولة، مع العلم أنّ أنظمة تلك الدول لم تكن ممانعة ولا معترضة على ما يطلب منها، وفاتهم أن سورية قلب العروبة، ليست لقمة سائغة، وعملية إسقاطها ليست بالأمر السهل، وأثبتت الأحداث أن هذا القطر بقيادته الشجاعة وبشعبه الصامد وجيشه العربي الباسل، أفشل كل مخططات أعدائه، وها هو في طريقه إلى تحقيق الانتصار الأخير، ولم يأبه للإرهاب في شمال الوطن وشرقه، وقد عقد العزم على تحرير كامل ترابه، وبسط سيادته على الجغرافية العربية السورية،فكما دحر الإرهاب في الجنوب وغوطتي دمشق وحمص والسويداء وحلب ودير الزور وغيرها، فهو ماض في القضاء على هذا الإرهاب في إدلب وفي كل منطقة، ولن تخيفه القوات الأميركية التي تدعم الإرهابَ بأشكاله المختلفة من داعش وجبهة النصرة وغيرهم، ولا حتى الميليشيات الكردية التي تتعاون معها وتقدم لها الدعم، وسيعرف الجميع، القاصي والداني، أنه لا مكان لأية قوة غير شرعية على الأرض العربية السورية، فالجيش الباسل المدعوم من الشعب الوفي والصادق بالإضافة إلى الحلفاء والأصدقاء كفيل بالقضاء على أية قوة غازية ومحتلة، إن كانت أميركية أو تركية ونذكّر الرئيس الأمريكي دونالد ترامب بما حصل لقوات المارينز الأميركية على شواطئ بيروت في ثمانينيات القرن المنصرم وكذلك للقوات الفرنسية، فالزمن قريب، لم ينسه أحد، والتاريخ أحياناً يعيد نفسه، فإننا نقول لهؤلاء: كفاكم إيغالاً بدم أبناء شعبنا، وكفاكم حصاراً وترهيباً فكل ذلك لم يزدنا إلاّ قوة ومنعة في مواجهتكم وإصراراً على عزتنا وكرامتنا وسيادتنا، والمستقبل القريب سيؤكد ليس تحقيق الانتصار الناجز والاستقلال التام لقطرنا، وإنما سنسهم في مساعدة الأشقاء العرب، لإنجازهم استقلالهم الفعلي وليس الشكلي، وإن غداً لناظره قريب.

تحوّل خطير في مسارات الإرهاب

• د.صياح عزام

مما لاشك فيه أن ماجرى في /نيوزيلندا/ مؤخراً يُشكل فجيعةً كبرى قد لاتستطيع أيّ لغة مهما كانت بليغة استيعاب حجمها ووصف فظاعتها، عندما هاجم إرهابي قاتل مسجدين في عملية قتل جماعي وبدم بارد أدت إلى مقتل خمسين شخصاً وإصابة عدد مماثل أو أكثر بقليل بجروح متفاوتة.

ومما يُلفت النظر، أن هذه الجريمة النكراء لم تلقَ ماتستحقه من الإدانة الصادقة من قبل الإعلام الغربي... كثير من السياسيين والزعماء الذين لم يُخفوا إعجابهم المُضمر بالعملية الجبانة، بل حاولوا إيجاد مسوغات تُبيّض صفحتها السوداء ، فبعض وسائل الإعلام الغربية نفت صفة الإرهاب عن مُنفذ المذبحة، ووصفت العملية بجريمة "قتل جماعي!" ، بينما ذهبت صحف أخرى للحديث بإسهاب عما سمّته "الجانب الإنساني في شخصية القاتل المجرم، مثل محاورة جدته، وسرد شهادات أقربائه وأصدقائه، على الرغم من أن وسائل إعلام "نيوزيلندا وأستراليا" عدت الهجوم عملاً إرهابياً مُقززاً لمشاعر الإنسانية.

بيانات الاستنكار التي صدرت من الغرب امتنعت عن إدانة منفذ المجزرة، في حين أن الأوساط الإسرائيلية وأوساط اليمين المتطرف في الدول الأوروبية سادتها عبارات الدعم للسفاح، الأمر الذي يعكس مدى تغلغل مشاعر الحقد والكراهية ضد العرب والمسلمين ، ويبدو أن هذا الهجوم لليمين المتطرف يستلهم أفكاره من إرث الحروب الصليبية.

لقد ظهر مُنفذ الجريمة" تارانت" مُتشبعاً مسبقاً بثقافة الكراهية والعنف والتفوق العرقي، حيث كشف من خلال الفيديو الذي نشره عن جريمته أنه استوحى هجومه من سفّاح النرويج "أندرسن بريفيك" الذي قتل /سبعة وسبعين/ شخصاً في هجوم عام 2011 على أحد المساجد هناك، وأنه استخدم خلال تنفيذه للمذبحة موسيقى في خلفية الفيديو الذي بثّه على فيسبوك تشير إلى أغنية تمجّد السفاح الصربي "رادوفان كارافيتش" الذي ارتكب جرائم إبادة ضد المسلمين في حرب البوسنة والهرسك.

بالطبع، مقابل هذه التداعيات السيئة والمنذرة بالأسوأ لهذه الجريمة، هناك أطياف واسعة من الأوروبيين يقودون معركة ضد اليمين المتطرف وأحزابه ويرفضون العنصرية والشعبوية، وهذا ماعبرت عنه تظاهرات متضامنة مع ضحايا الجريمة النكراء.

ولكن توجد مجموعة من الاستنتاجات والملاحظات حول الجريمة على الصعيد العربي منها:

أولاً: إن الفضائيات وشاشات التلفزة العربية ومحطات الإذاعة كانت تغطيتها للجريمة مقتضبة ، ولم تُعرها القدر الكبير من الاهتمام الذي تستحقه، بينما خصصت محطات أخرى مثل / آر ت و بي بي سي/ عشرات الساعات من النقل الحي والمباشر لتغطية الحدث ومابعده، تخللتها تعليقات، وردود أفعال دول وقادة تتبّعت القاتل المجرم حتى مسقط رأسه/ مُحاولة رصد ظاهرة "الإسلاموفوبيا" في العالم، وقراءة الصلة بين نمو التطرف و تزايد معدلات الهجرة واللجوء، وظهور اليمين الشعبوي أو "العنصرية البيضاء، مع تركيز بعض الصحف على الرئيس الأمريكي /ترامب/ كمسؤول أول عن نشر الثقافة المعادية للمهاجرين واللاجئين.

ثانياً: صحيح أن مشاعر الغضب اجتاحت العرب جميعاً مسلمين ومسيحيين، إلا أن التعبير عن ذلك لم يكن واضحاً تماما، حيث لا مظاهرات ولا وقفات احتجاجية إلا في نطاق ضيق، وهذا أمر يستدعي السؤال، لماذا لم يكن هناك تحرك عربي واسع كما كان تجاه جريمة الاعتداء على "شارلي إيدو" في باريس قبل أعوام.

ثالثا: تبين أن تيارات من الإسلام السياسي أبدت فرحها بما حدث في محاولة للتخفيف من وقع جرائم تنظيمي داعش و النصرة الارهابيين والتنظيمات المتفرعة عنهما،وبالتالي، لا داعي لانتقاد هذه التنظيمات الارهابية التي ترتكب جرائم في سورية والعراق وليبيا و مصر بذريعة أن الإرهاب ليس مقتصراً على الإسلام!

رابعا: لوحظ أن الرئيس الأمريكي "دونالد ترامب" قد حاول التقليل من شأن "العنصرية البيضاء" و"العنصريين البيض" ووصفهم بالأقلية الضئيلة، متجاهلاً أيضاً العداء المنفلت للأجانب واللاجئين، وكثرة الحديث المتزايد عن "التفوّق العرقي" لدى الشعوب الغربية، وتسويغ الإجراءات اللاإنسانية التي تتخذ بحقهم، وبالطبع، هذا ليس مُستغرباً من "ترامب" لانه ينتمي إلى هذه المدرسة "مدرسة العنصرية البيضاء".

وقد صرح القاتل المجرم علناً أثناء ارتكابه الجريمة وبعدها ،بأنه معجب بالرئيس /ترامب/ وانه يعده ملهمه!!

خامساً : لوحظ أيضاً أن الإعلام العربي عامة، قصّر بتغطية رد فعل "نيوزيلاندا" سواء كان على صعيد الحكومة، أو على الصعيد الشعبي على الجريمة، فعلى مستوى الدولة والحكومة ، قامت رئيسة الوزراء بزيارات لتجمعات المسلمين والمساجد، وقدمت التعازي لأهالي الضحايا، وعبّرت عن أسفها الكبير لما حدث وإدانته، وعلى المستوى الشعبي، خرجت مسيرات احتجاجية إلى جانب تجمعات شعبية حصلت بشكل عفوي!إضافةً لأكاليل الورد التي وضعت بكثافة أمام المساجد، الأمر الذي يدل على أنه ليس كلّ /النيوزلنديين/ قَتلة،أو متعاطفين مع السفاح القاتل، خاصة أن /نيوزيلندا/ استقبلت المهاجرين واللاجئين في الوقت الذي قامت دول أوروبية كبيرة بسدّ أبوابها في وجههم فضلاً عن المضايقات التي تعرضوا إليها من قبل عناصر متطرفة وحاقدة.

من خلال ما تقدم عرضه لا بد من تسجيل بعض الملاحظات حول هذه المجزرة البشعة منها:

إنها تجسد سلوكاً أرعن وواقعاً مريراً ينمّ عن خلل كبير في الواقع الفكري الذي يعيشه العالم في مجالات صقل الذات والانحراف عن جادة الصواب.

إنها تعيد إلى الأذهان زمن الاستعمار وحياة الغاب، وتفصح عن وجه آخر مشؤوم يعيشه عالمنا المعاصر.

إنها تأتي في سياق محاولات تشويه صورة الآخر وتوجيه الإعلام لخدمة السياسات المعادية للشعوب وإثارة الفتن الداخلية وانتهاك فكر الإنسان وشنّ الحروب هنا وهناك.

الجريمة ليست فردية أو حادثاً منعزلاً كما سوّقت وتُسوّق له ماكينة الإعلام الغربية، بل جاءت نتيجة لايدولوجيات وقناعات سياسية واجتماعية تعمل على ترسيخها وتوسيع نطاقها دوائر سياسية وأجهزة مخابرات ووسائل إعلام أمريكية وغربية، وثمرة لخطاب سياسي غربي قائم على فكرة "النقاء العرقيّ" التي هي أساس من أسس النازية البغيضة.

صدمة جيش العدو.. وفرحة للفلسطينيين

•رشاد أبوشاور

"منفذ عملية سلفيت، أطلق على الجنود الإسرائيليين النار على طريقة باسل الأعرج، اغتنم سلاحهم على طريقة عاصم البرغوثي، من مسافة صفر على طريقة أحمد جرار، اشتبك في "بركان" على طريقة أشرف نعالوه، أسعد قلوبنا على طريقة كل شهدائنا وفدائيينا».

هذا التوصيف الفلسطيني الرائع للعملية البطولة اختزل كل معانيها وأبعادها..ومع ذلك فلا بد لي من قول كلمتي.(رشاد)

أنا لا أعرف إلى أي تنظيم ينتمي بطل عملية (سلفيت)، ولكنني فخور به، فهو فلسطيني، وانتماؤه لفلسطين يأتي قبل انتمائه لفصيل ما، وبطولته ليست معزولة عمّا قبلها، وهي امتداد، فهو ينتمي لسلالة من الأبطال الذين عرفتهم فلسطين في ثوراتها المتواصلة منذ حوالي مائة عام، والتي لها عنوان رئيس موجه للصهاينة الغزاة: لن تنتصروا، ولن تهنأوا باحتلال فلسطين، وسنقاتلكم بكل ما يتيسر لنا في معركتنا الممتدة معكم حتى تيأسوا، وتنهزموا، وتشهدوا خراب مشروعكم الذي لا مستقبل له على أرض فلسطين.

صدمة العدو لها سبب مخيف للاحتلال: الشجاعة التي تباغت جيش الاحتلال، وقياداته، والتي لا يمكن أن تنتهي بالقمع مهما بلغت قسوته.

جسارة (الفلسطيني) الشاب، وهو ينقض من مسافر صفر بسكين، مباغتا عدوه، وهو جندي مدرّب، مدجج بالسلاح، وينتزع سلاحه، ثم يواصل اشتباكه فيقتل ويجرح، ويستحوذ على سيارة، ويغادر بلمح البرق..ويختفي في تضاريس أرضه، وبين شعبه.

ثورة الشعب الفلسطيني لا تخمد، رغم القمع، والحصار، وزج الألوف في المعتقلات الصهيونية، ورغم الدعم الأمريكي المعادي علنا للشعب الفلسطيني، والمنحاز تماما للكيان الصهيوني بما يسمى(صفقة العصر) – وما قبلها- التي تهدف لتصفية القضية الفلسطينية، وتحويل الشعب العربي الفلسطيني إلى (سكّان) غرباء في وطنهم، و..إنهاء القضية الفلسطينية بالاستعانة بنظم حكم عربية مستتبعة (تطبّع) تلبية لأوامر الإدارة الأمريكية، وهي بالأساس متآمرة على كل قضايا الأمة العربية ، وفي مقدمتها قضية فلسطين.. التي ستبقى قضية ملايين العرب الأولى.

(ينام) الكيان الصهيوني على ما يحققه من دعم أمريكي متصاعد في زمن ترامب، وتطبيع الأنظمة التابعة، وحالة الانقسام الفلسطينية (بين) القيادات المتصارعة على (المغانم) و(الامتيازات)..ويوظّف هذه الفترة القاتمة في تحقيق نصر استراتيجي، ولكنه يباغت بروح المقاومة الفلسطينية المضطرمة التي تؤجج جمرها بطولات شباب فلسطين العنيد الواثق من انتصار قادم لا محالة.

هناك من يغطون عجزهم فلسطينيا، ويسوغون بؤس حالهم بماض مقاوم، وهناك من يتخذون من مظاهر (مقاومة) تتغطى بالشعارات مسوغات للهيمنة والاستبداد..والطرفان يذبحان القضية، ويضعفانها، ويشتتان قوى شعبنا، وما حققه من حضور عالمي جعله منارة للشعوب المقاومة.

فرح شعبنا بهذه العملية البطولية الجسورة المقدامة المبهرة، لا يعود إلى ندرتها، فهي تأتي في سلسلة متواصلة من العمليات المتميزة، ولكن لأنها تأتي في حقبة مرّة مكتئبة.. فتشعل شمعة ..وشمعة كبيرة الضوء، فتملأ العيون نورا، وتسعد عينيّ فلسطيني المتطلعتين إلى أبنائها.. لا قيادات فصائل الصراعات والانقسام المحبطة العاجزة.

هذه العملية نفذها شاب صغير العمر، لا يملك سلاحا، ولكنه يمتح من روح شعب فلسطين، من تراثه الثوري المقاوم، وهي تصنع شيئا كبيرا من دون إمكانات ..اللهم سوى (سكين) صغير..وروح اقتحام صدمت الجندي الصهيوني وأفقدته القدرة على المواجهة، وأذهلت جنودا آخرين، ومستوطنين قتلة فرّوا أمام عاصفة فلسطينية عاتية بطلها فتى فلسطيني واحد..واحد فقط!

لا..لم تصدم عملية الفتى الفلسطيني الجسور الجندي المُحتل وحده، ولكن الجيش الذي درّبه، وأعدّه، وجهّزه بسلاح متفوّق..ولذا صدم جيشه، و(دولته) وقادة دولته بألوانهم كافة، وهم جميعا صهاينة آثمون مُحتلون معتدون، لن يستيقظوا إلاّ مع ضربات مقاومة شعبنا، وبانتظار يقظة ملايين العرب بين المحيط والخليج بخروجهم على أنظمة العجز والتبعية والاستبداد.

هذه العملية الجسورة تقول للمطبّعين المنحطين الخونة: فلسطين ليست (لعبة) أيها الأنذال، فشعبها العريق في مقاومته كفيل بتأجيج نارها الدائمة، وهي نار ستبلغ كراسيكم مهما احتميتم بنتنياهو وترامب.

يعرف شعبنا جيدا، ولا يحيد عن جوهر معرفته المتراكمة على امتداد عقود، بأن فلسطين تبقى حيّة بالمقاومة، وهو بهذه المقاومة يضرب رأس العدو الصهيوني الذي ظنّ أنه بخديعة (أوسلو) سار حثيثا خطوات واسعة على طريق إنهاء قضية فلسطين، وتحقيق انتصاره التاريخي!

لا، المقاومة روح، ووعي، وإرادة، وهي لم تؤأد..ولن.

وعرب فلسطين سيبقون سيف الأمة ودرعها ويدها الضاربة..سيبقون مرابطين مقاومين في فلسطين، وشعب فلسطين يعي دوره: طليعة نهوض الأمة، ولا نهضة للأمة إلاّ بتحرير فلسطين..هذا دوره، وهذا خياره، وهو ثابت على العهد منذ نهاية القرن التاسع عشر حتى يومنا هذا في العقد الثاني من القرن العشرين..وإلى أن تتحرر فلسطين بتمامها وكمالها.

اللُّغة الحواريَّة في شعر عبد النَّبي التَّلاوي.. (قصيدة: إلى آخر الحبِّ يمضي الكلام) ١ (حواريَّة بين عاشقين) أنموذجاً

• د. وليد العرفي

تنهض لغة الحوار في قصيدة: (إلى آخر الحبّ يمضي الكلام) للشاعر: عبد النبي التلاوي على حوارية بين طرفي الحياة: رجل وامرأة، وهذه الثنائية تبنى على تتابع المتحاورين وفق تداخل بين صوت الرجل الذي هو الشاعر نفسه وصوت أنثاه الذي يستهل به الشاعر قصيدته المعنونة بـ: (إلى آخر الحبّ يمضي الكلام) وفق هذه النمطية الثنائية.

العنوان ودلالته:

يؤسس عنوان القصيدة على السببية التي ترتكز إلى مفهومي الحب والكلام وفق علاقة رابطة، إذ الكلام وسيلة التعبير عن الحب، كما أنه وسيط الاتصال بين طرفي العلاقة الإنسانية التي يكون فيها الكلام أداة اتصال وتواصل وفق تدرج بنائي يعتمد تبادل ثنائية الأدوار بين المتحاورين، وإذا كان العنوان يمثل العتبة النصية في هذه القصيدة، فإن ذلك يقودنا إلى التوقف في ماهية التوظيف الجمالي لهذا العنوان الذي يتألف من ركنين هما: شبه جملة: (إلى آخر) وجملة فعلية (يمضي الكلام) نلحظ في الركن الأول شبه الجملة (إلى آخر الحب) يبدو لاستخدام كل كلمة وحرف دلالته الإيحائية في توظيف هذه العتبة للولوج إلى عالم النص فحرف الجر: (إلى) يُشكّل مفتاح العنوان بما يحيل عليه من طاقة غير متناهية في هذا الحدث اللاحق، وما يُمكن أن يستطيل فيه هذا البوح في التعبير الذي يتّخذ من الحب موضوعه الذي يريد أن يكون حوارا مستقبلياً لا ماضوياً، وهو ما تنهض به دلالة الركن الثاني في العنوان وهو الجملة الفعلية: (يمضي الكلام) التي جعلت من الفعل المضارع (يمضي) لبنة الأساس المعماري في التركيب كله بما يكتنز فيه هذا الفعل من حمولات دلالية من حيث إفادة الإشارة الى المستقبل بدلالته الزمنية، كما يشير إلى استمرار الحكي بدلالته القصدية، وبذلك ينهض العنوان وفق هذه الرؤيا لدى الشاعر ليمثل العتبة النصية التي يحاول من خلالها أن يفتح للقارىء باب محراب القصيدة التي تتبدى أشبه ما تكون بجلسة هادئة بين عاشقين يتبادلان البوح العاطفي في لحظة حب صادقة، إذ تتجلى في هذا البوح إمكانية أن يطلق المتلقي لمقدرته التخيلية في تصور ما يمكن أن يصل إليه هذا الكلام الذي يعبر عن آخر الحب الذي يعنيه الشاعر، وهو يحاول أن يبلغ ذروته، وهو حب لا يحدُّ بمدى، كما لا يؤطره مكان.

ومن هنا يبدو العنوان محققا جماليته في توظيف طاقة اللغة في استكناه مرامي الشاعر فيما يريد أن يعبر عنه وفق هذا البعد اللغوي، ودلالاته النفسية، فالشاعر لا يتحدث عن حب بالمعنى الحب العاطفي وحسب، بل يبدو منعتقاً منه إلى حب متصوف يدخل الذات في الآخر، كما يتغيا كل من طرفي هذا الحب رغبة الطرف الثاني، ومن هنا يبدو لاستهلال القصيدة بواو الحال دلالته في منح النص قوته الإضافية في التعبير والدلالة على مستويي اللغة، إذ الحال يفيد اللحظية والزمن الآني، وهو ما يعني التعبير عن موقف محدد في لحظة زمنية معينة، وعلى مستوى الحدث يفيد الاستمرار والمستقبل، وهو ما يمنح دلالة الفعل: (يمضي) قوته في التصور من حيث استمرارية الزمن والقدرة في الفعل المؤثر، ليرفد ذلك حالة الثبات التي تقترن بالدلالة الاسمية التي بنيت عليها جملة الحوار الأولى في القصيدة التي جاءت على لسان الأنثى:

وأنت حبيبي...
وأنت الدموعُ بعينيَّ حين يطول الغياب
وأنت حنيني إلى الماء والكونُ حولي سراب

بهذا الاستهلال يبدأ الشاعر حواره عبر علاقة ثنائية، إذ يبدأ بتأكيد حقيقة الحب وتمكنه في نفس المرأة، لينتقل من هذا التعميم إلى تدرج في توصيف دقائق هذا الحب الذي يتمظهر في كل مواقف الحياة، ليكون حالة حقيقية تتجسد في الدموع عندما يطول الغياب، وحالة شعورية عندما يلغي كل شيء، ويكون هو الحياة التي تحيل عليها لفظة الماء، وهي تناص مع القرآن الكريم في قوله تعالى: «وجعلنا من الماء كل شيء حي»

فيكون الحبيب هو الحقيقة الوحيدة في هذا الكون، بينما الكون كله خداع وزيف، ليتمرأى حالة العاطفة الأنثوية في حالة الخوف التي تنتابها على هذا الحبيب الذي يعني لها الحاضر والمستقبل، ليصير الحب حالة تعلق ورعاية وحماية:

أخافُ عليك كأنّك طفلي
كأنّي خلقْتُ أنا كي أحبّكْ

لم تعد الحالة العشقية هنا علاقة حب وحسب، بل هي حالةَ تعلق يصل إلى حد التماهي بذات المعشوق الذي يصير الغاية والمآل الذي تطمح إليه النفس العاشقة، فالعاشقة ترتهن لتكون الساهرة على راحة الحبيب، وهي تتابعه في كل خطاه التي تكون معها كالظل، بل تنتقل معه إلى عالم الغياب في حالة النوم، لتدخل حلمه، ليكون التلاشي والانصهار في هذا الحبيب في الحالة الجسدية التي يستحضر فيها المفردات الدالة على حالة الوله بالحبيب، وهو ما يبرز من خلال حقل الدلالة لألفاظ: (يفور، سُكّر، صدري، يضم) وهي دوال تشير إلى حالة التعطش لعيش حالة الانصهار التي تتقابل مع رد الطرف الثاني المحاور الرجل الذي يحاول أن يُمنطق الحب ويعلل أسبابه، وهو ما يكشف عن تبدل في مستوى الفهم، فالمرأة تحبُّ، لأنها تحب، فلم تقدم للحبيب أسبابها، بل جاءت بمسلّمة الحب وأنه بديهة، وهي تتقدم باعتراف الحب بعفوية وشفافية تمتلكها الأنثى فيما نرى الشاعر التلاوي يقدم حوار الرجل مُعلّلاً يقوم على المنطق فيما إذا كان للحبِّ منطق أو فلسفة يتحدد فيها، ويسير وفق قوانينها، ليكون الحب سبباً في القول والتعبير، فيأتي الرد بالتعليل المؤكد:

لأنّي أحبُّك...
دون ربيع يُزهّر بين شفاهي الكلامْ
فراشاتُ ثغرك حول خدودي
تراقصني فيَطوف اليمامْ

ليكون همس البوح ربيع الشاعر الذي يتفتق منه براعم الحروف وثمار الكلمات، وفي هذا الحوار تبرز (أنا) النمط الرجولي الذي يترك لنفسه حرية الحركة والقدرة في إرادة ما يريده من أنثاه، فتظهر صيغة فعل الأمر الذي يحمل دلالة التعبير عن مقصدية الحب والشغف في التمتع بلحظة الحب السانحة في هذا المشهد العشقي:

دعيني أحبّك حتّى أحبَّك
لا تتركي الوَردَ يذوي حرَامْ

فالحب غاية، والحب وسيلة وإنقاذ، لتكون الاستجابة والإجابة بتحقيق إرادة المحب، وانعتاق الحبيبة من كل انتماء عائلي، ويصبح الحبيب غاية الوجود، ووجود الغاية:

أحبُّكَ فاسألْ طيورَكَ عنّي
وكُنْ يا حبيبي فضاءَ لنهري
وأشعلْ ضلوعي ببرق يديكْ
وخذني لصدري من أبويَّ
لكي يتمدّد ظلّي عليكْ
ونمْ يا حبيبي قليلاً لأغفو
ويهرب حلمي منّي إليكْ

ليبدأ نشيج الشكوى من الحب الذي يرى فيه الحبيب مصدر الألم والتعب:

تعبْتُ من الحبّ...
ماذا أريد إذن حين أتعبْ ؟
سأخطف نجماً على ركبتيك...
ينام وأوقظه حين ألعبْ
وحين تجفُّ ينابيع عمري
سأحمل قلبي كطير جريحْ
وأطلقه في يديك ليَشربْ

ليكون الرد من الحبيبة إمعانا في تأكيد التعلق بالحبيب، وهنا تشفع الصورة الاستعارية بتجسيد ذلك التعلق الأنثوي بالحبيب التي تجسد علاقة الحب بعلاقة النهر بضفتيه بما تحيل عليه دلالة الصورة من اقتران وتلازم وانتماء:

إذا تعب النهر من ضفتيه
فخذْني كما النّهر في ساعديكْ
حبيبي إذا مسّني منك عطرٌ
أخاف فمي أم أخاف عليكْ ؟!

إنها بخلاف الصورة السابقة:

«كن يا حبيبي فضاء لنهري» ولم يستخدم الشاعر: (ضفافا) كما هو متوقع، وذلك لما تقتضيه الشاعرية التي تأتي باللامتوقع والبعيد عن ذهن المتلقي بخلخلة العلاقات العرفية السائدة في التراكيب والمصاحبات اللغوية المألوفة من جهة، كما تفيد دلالة على اتساع كلمة الفضاء من حيث البعد في المسافة التي يمكن إحالة مجازية استخدامها إلى

إرادة الشاعر في تأكيد استعلاء الرجل وفق السائد في الذهنية الشرقية، وحالة كون الفضاء يشتمل ويستوعب ما تحته من موجودات الطبيعة، وكأن الشاعر يومىء - ولو باللاشعور- إلى أن المرأة جزءٌ من حياة الرجل، فيما الرجل هو كل وجود المرأة، وهذا الإيماء يعززه قول الأنثى: (اسأل طيورك عني) فالرجل يحب المرأة حالات مجزأة وفق ظروف متغيرة وطقوس مختلفة، فيما المرأة تحب رجلها حالة واحدة ثابتة لا تتغير، ولذلك يبدو الحب حالة جنونية لديها لتنعتق من أسر ذاتها، لتعيش في ذات رجلها:

وحلوٌ هو الحبُّ
يملؤني عسلاً يا حبيبي
ويسرقني من رحيقي إليكْ
وصعبٌ هو الحبّ
يطلقني فرساً من جنونٍ
ويوقعني في صهيل يديكْ

وهنا يكون الوجع اللذيذ الذي يتّسق والنزوع الرومانسي للشاعر، إ ذ الشاعر معدنه الألم حسب تعبير لامارتين، ليكون الحب باعثا على الحزن والحالة العشقية تستحضر موقفا يدعو للعذاب:

ألا تستطيعينَ أن تسرقي من فؤادي الحنانا ؟
لئلا أُعذّب أوّل امرأة عشقتْني
وقلبَ الفتاة التي أوسَعَتْ ...
لجبيني علىَ ساعديها مكانا

ليكون الصوت الأنثوي هو الصوت الطاغي والمفجر عنفوان الحب، والمؤكد استيلاء الرجل على مشاعر الحبيبة التي تطلق في الفضاء صوتها معلنةً عن الحب صرخة مدويّة، وهو تعلّق يذهب إلى أبعد مما يبلغه الحب، إنه التملك الذي يصل إلى قتل من نحب لأننا نحبه، ومن هنا تبدو دلالة الكلمات التي يوظفها الشاعر بحرفية شاعرية، وفنية تعكس الحالة الشعورية المنفعلة بالموقف، فنجد ألفاظ: (أظفار، أنشب، أصرخ) وكأننا في مشهد جنائزي لا موقف حميمي بين عاشقين يتحاوران بلغة الحب، ويتعاطيان العشق في لحظة من لحظات العمر التي سنحت للحبيبين:

حبيبي انتظرني قليلاً
لأكتبَ شيئاً يليق بعينيكَ
إنْ أحرجتني ونامتْ يداكْ
افترضنيَ كوخاً تلوذ إليه
ويدفنُ فيه أساكَ أساكْ
اختضني قليلاً
لأنشبَ أظفارَ روحي
بصدركَ ...
أصرخُ في الكون أنت فتاكْ

لينتهي هذا الحوار بالتعبير عن أمنية لم تكن لتتحقق، ولن تتحقق، وهو ما أفادته دلالة: (ليت) التي تشير إلى طلب مستحيل لا يمكن تحقيقه، وهو ما عبّر الشاعر عنه قديماً بقوله:

ألا ليت الشَّبابَ يعودُ يوماً فأخبرهُ بما فعلَ المشيبُ

ولذلك تظهر هذه الاستحالة في تصوير مشهد الحزن الذي يُنهي الشاعر فيه القصيدة، ليكون آخر الحب أمنية لا يُمكن تحقيقها، ويصيح الكلام صمتاً يُعبّر عن حالة معيشة ربَّما ليس لها إمكانية الاستمرار في الحياة، لتظلَّ القصيدة لوحةً مرسومةً لذلك المشهد الحواري الذي يبدو فيه كل ما حوله مُتَّشحاً بالأسى حتى الطبيعة، وما فيها من جمال، ليكون (البنفسج) المعادل الموضوعي الذي يعكس انشغال الشاعر بحزنه الداخلي:

لصوتكَ هذا الحنينُ الدفينُ
الكمانُ
الأنينُ
وهذا البنفسج والحبُّ نايْ

فيما تبقى الحبيبة معبّرةً عن شغفها بالحبيب وحبّه الذي امتلك كلّ مشاعرها:

أحبُّكَ يا ليتني لا أحبُّكَ
يا ليت قلبي بصدر سوايْ

وأخيرا يمكننا القول بأن قصيدة الشاعر: عبد النبي التلاوي: (إلى آخر الحب يمضي الكلام) حوارية تنهض باللغة، لتحوّل المجرَّد إلى محسوس، وتنقل غير المادي إلى المعنوي، فتحقق المتعة الجمالية، وتلك هي الوظيفة الجمالية للشعر التي تُمكّن المتلقّي من مشاركة الشاعر حالته الانفعالية، وتنقل إليه الموقف مشهداً يحسُّه حتى يكاد يبصره بأمِّ عينيه.

1 - من ديوان الشاعر: بابها مغلق وخريفي مقبل، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000 م.

رحلة مع الشاعر والأديب "محمود علي السعيد"

• نجدت اسكندراني

الشاعر «السعيد» يحتفي بالحياة على طريقته، فيُطيّرُ الآمال في ظلام الليل...

فتتقافز الحروف على أوتار قلبه لتعزف سيرة الحب، و لواعج الأيام...

وينبض الحب في تجليات شعره الملتهبة بجمر الأسى، وتُثقلُ نجواه السطور... ويحملها النسيمُ همسات في ليل غفا يُطلقها من شواطئ الذكرى أشواقاً، وعتاباً، وألماً، علّ نداء الفجر لشمس الضحى أن يُفسحَ.

وساءلت قلمي من أين إلى مرج «السعيد» الأخضر ألج ؟ حين عزمت على القيام بنزهة إلى فضاءات « محمود علي السعيد» الأدبية والإنسانية.

وما إن استفاقت جفوني وقرأت بعض مجموعاته الشعرية.. وهداني عبقها الفواح إلى قطوف منها...إذ بدقاتٍ في جدار قلبي تدغدغ عواطفي:

الحب الأول عندك للقصة.

و«السعيد»هو رائد القصة القصيرة جداً. كما وصفه العلامة «محمود فاخوري» وبخط يده في إهدائه له، كتاب «سفينة الشعراء».

ولفّت بي الحيرة، من أين أبدأ ؟ وتسعفني ذاكرتي حين تنتشلني من دوامة الشعر والقصة، إلى الزمن القريب، لمكالمة هاتفية إنسانية، دافئة، أبدأ منها..

ألو.. الأخ نجدت ؟ أنا محمود علي السعيد.. بالأمس قرأت روايتك "الأستاذ" واستمتعت بها وآمل أن نلتقي.

وأصبحت متشوقاً لدعوة رائد الذوق الرفيع. لما فيها من مشاعر طيبة، أزكتها حرارة شاعر تشده الكلمة الصادقة، التي وهب نفسَه لها.

محمود علي السعيد. غصن يزكو فيه الثمر، وتختال عليه أوراقٌ قصصيةٌ تسخرُ، وتبكي.

وأنغامٌ شعريةٌ متصاعدةٌ، كموج البحر. يرق، ويثور.

لنمضي معاً نستعذب منها قليلاً :

وقفتُ أسائلُ الأوراقَ وصلاً بجمرِ حنينه اختلجتْ صدورُ

ولما أبحرت بين طيات أوراقه قرأت :

إلى من أطربت أوراقَ روحي وطابت في تألقها قواما

× × ×

والتقينا.. وفاحت رائحة الشاي اللذيذ...

كان متدفقاً في الحديث ودوداً،كريماً في الحب، سخياً، لا يخشى من العطاء جفاف القلب، وهو على قدر كبير من المكانة الثقافية والأخلاقية، وبدا لي متواضعاً في جلسته. وحضرني بيت من قصيدة له :

أنت من طينٍ ومن طينٍ أنا فلماذا كل هذا بيننا

كان نشيطاً، متحركاً بكل جسده، لا يعبأ بحمل ستين عاماً ونيف من العمر. سقاها من دوارق الإبداع والأدب. وهو القائل:

أوقدي الحرف في مدافئ عمري واتركيني على السطور يراعا

بين طيات قصصه، وأبيات شعره تقبع مدينتهُ "ترشيحا"..حاضرةً في وجدانه، وبينه وبينها أمواجٌ عاتيةٌ، وسدودٌ عاليةٌ. وحقيبةُ الشوقِ على كتفه، بانتظار صافرة قطار العودة.

فما تزال الأغاني التراثية في ترشيحا يتردد صداها في أذنيه:

«ترشيحا يا ركن الجبل
ومزينه برجالها
واللي يحاربنا نحاربه
وبالسيف نقطع شاربه»

بين الأسطر ابتهالاتٌ، تستسقي رصاصات نظيفةً، تمطر في كانونَ الأول، يحملها الريح إلى سفوحِ جبال الجليل الفلسطيني، لتحرير عروس الجليل "ترشيحا" الأسيرة.

سيتنفسُ الصبحُ...ويعتمر كوفيتَه، و يتكئ على عكاز الحق، عائداً ليقطف من الأشجار الزيتون الأخضر. وفي المساء يذهب إلى مقهى "الختيارية "في ساحة "ترشيحا" الجميلة... ويتقد العشق مع تكبيراتِ الولادة الجديدة،حول مدفأةِ فلسطينيةٍ.

صور من نضال شعبنا في سبيل الجلاء

•غسان كلاّس

منذ أن وطئت أقدام المستعمر الغاشم تراب وطننا الغالي، وعلى مدى ستة وعشرين عاماً، تصدى شعبنا بكل قواه وإمكاناته لدحره، مؤكداً أن الظلم لن يدوم وأن القهر سينهزم ويذهب إلى غير رجعة.. فكان يوسف العظمة -شهيد ميسلون- أول شهداء الجلاء والتحرير. لقد وصف شعراؤنا ظروف الناس ومشاعرهم حيال الاحتلال وجبروت المستعمر... وها هو الشاعر خير الدين الزركلي يصور الأذى الذي لحق بدمشق:

صبرت دمشق على النضال لياليا
حرم الرقاد بها على الأشفار
يترقبون الموت في غدواتهم
وإذا نجوا فالموت في الأسحار

ويرسم الشاعر شفيق جبري صورة لما لحق بدمشق من جراء ضربها في أيام عام 1945:

يا يوم أيار والنيران ملتهبة
على دمشقَ تلظيها جلاميدُ
الطفلُ في المهدِ لم تهدأ سريرته
مُروَّع من لهيب النَّارِ مكدودُ

لقد ألهب شعراؤنا المشاعر الوطنَية وحَرّضوا الشعب على الثورة وترجموا بطولاته وأذكوا روح النضال والفداء في أعماقه. يقول الشاعر محمد البزم:

أقومي لا ترضوا المذلة منزلا
تمشي إليكم، بالسموم عقاربه
ففينا وإن طال المدى وعد الردى
بقية عزم لم تبدها نوائبه
فهبوا هبوب الليث للمجد وانتضوا
من الحزم عضباً لا تقل مضاربه

إن أبطالنا وثوارنا، الذين كانوا موضع افتخار الشعراء وفجروا قرائحهم بأروع الشعر، هم الذين صنعوا الجلاء الذي كان ولا يزال وسيبقى موضع ابتهاجنا وعزتنا وسؤددنا، لأنه يوم النصر يوم الابتهاج والفرحة الكبرى... يوم وقف قاسيون على ذراع أمه دمشق شامخا رافع الرأس يرنو إلى بعيد، إلى كل ناحية من أرض الوطن بعد أن تطهرت من رجس الاستعمار يوم وقف السوريون، بل العرب جميعاً، فرحين لأنهم استطاعوا بتماسكهم، وحبهم لوطنهم أن يتصدوا لإحدى أعظم الدول آنئذ يخرجونها من ديارهم صاغرة لا تلوي على شيء..

لذلك حق للسوريين، ويشاركهم العرب جميعاً، أن يفتخروا ويقيموا مظاهر الاحتفال والزينة، في أرجاء سورية، فقد أقيم في أول شارع بيروت، شارع شكري القوتلي في السابع عشر من نيسان 1946 احتفال رائع، احتفال المجد والكبرياء، احتفال كانت الطبيعة ويد الرحمن تسبغ عليه دفئاً رائعاً ورونقاً خاصاً... في ذلك اليوم، كان كل شيء في بلادي يهزج ويردد أنشودة النصر والمجد، وكانت غوطة دمشق المنداة بدماء الشهداء الأبرار تسكب عطرها وشذاها فرحة طربة مستبشرة.. وكان في كل حي فرح وفي كل شارع مهرجان وفي كل ساحة دبكة.. الشباب والأطفال والشيوخ والنساء محتشدون يعلنون بهجتهم وسرورهم في ظل الأعلام الوطنية الخفاقة...

لقد كان الاحتفال بالجلاء من الأيام المشهودة في تاريخ سورية وكان يجسد المعنى الحقيقي للحرية، الحرية التي ناضل شعبنا من أجلها طويلاً، لذلك كان الاحتفال الأول بالجلاء فوق ما يتصوره عقل ويصفه القلم جلالاً وبهاءً وحسناً وروعة... ولابد من الإشارة إلى الخطاب التاريخي الذي ألقاه رئيس الجمهورية العربية السورية، شكري القوتلي آنذاك، ومما قاله فيه: «هذا يوم تشرق فيه شمس الحرية ساطعة على وطنكم؛ فلا يخفق فيه إلا علمكم، ولا تعلو فيه إلا رايتكم، هذا يوم الحق تدوي فيه كلمته، ويوم الاستقلال تتجلى فيه عزته، يوم يرى الباطل فيه كيف تدول دولته وكيف تضمحل جولته، هذا يوم النصر العظيم والفتح المبين.».

وأخيراً، وليس آخراً، إن معركة النضال ضد الاستعمار والصهيونية مستمرة، وإن اختلفت مواقعها أو تغيرت أساليبها، وسيظل العرب يقاومون ويناضلون.. وفي مواقف أبطال الانتفاضة في فلسطيننا الجريح، خير شاهد على أصالة شعبنا وتعلقه بترابه، (..وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون).

•د.حسن حميد

الشرف..!

القصة الثانية التي أود موافقتها هنا، هي قصة (بارتولوميا) وتقول:

كان يعيش في بيزا قاض، يفوق ذكاؤه العقلي قوته البدنية، اسمه ريكاردو دو كينتَسيكا، وكان يظن أنه قادر على إرضاء امرأة بإمكانياته الجسدية نفسها التي يكرسها لدراسة القضاء؛ ولكونه واسع الثراء، وتطلباته ليست قليلة، فقد بحث عن امرأة جميلة وشابة ليتزوجها ولو أنه عرف كيف ينصح نفسه، مثلما ينصح الآخرين، لكان عليه أن يتحاشى الجمال والشباب. ولكنه حصل على مراده، إذ قدم له السيد لوتو غالندي ابنته الشابة والجميلة لتكون زوجة له، وكان اسمها /بارتولوميا/، وهي واحدة من أكثر فتيات بيزا جمالا واعتدادا بنفسها، بالرغم من أن قليلات هناك، لا يبدون مثل السحالي أو الديدان. وأمر القاضي بإعداد حفلة زفاف كبرى، واستقبالها بأبهة بالغة، واستطاع في الليلة الأولى أن ينالها بصعوبة، ثم اضطر إلى تركها كي لا يصيبه الإنهاك بمكروه، وفي الصباح التالي، ولأنه كان منهوكا وجافا، فقد اضطر إلى تنشيط بدنه بالنبيذ، وأصناف الحلويات، وحين قدر حقيقة وضعه وأدرك عجزه، قرر أن يعلم عروسه تقويما من تلك المناسبة، لتعليم الأطفال القراءة في رافينا، فلم تكن هناك في كل يوم حسب تعاليمه مناسبة واحدة يحتفل بها، وإنما عدة مناسبات، وعلمها أن توقير تلك المناسبات، يفرض على الرجل والمرأة الامتناع التلاقي الجسدي، ثم أضاف إلى تلك الأيام أياما أخرى تكرس لياليها للسهر في ذكرى الرسل، وألف قديس آخر، فضلا عن أيام الجمع والسبوت والأحاد، المكرّسة لعبادة الرب، وأيام الصوم الكبير، وبعض مراحل القمر، واستثناءات أخرى كثيرة مفكرا في أنه من الملائم الاستراحة من النساء في الفراش، كالاستراحات التي يمنحها لنفسه بعد دعاويه القضائية، وبهذه الطريقة، على الرغم من استياء الزوجة، اختزل كل شيء إلى مواعدة واحدة في الشهر، وعاشا على تلك الحالة زمنا طويلا، وكان يحرسها جيدا، كي لا يأتي شخص آخر ويعلمها جيدا أيام العمل مثلما علمها هو أيام العطل والأعياد، وحدث أن بدأ الحر يشتد، وشعر السيد ريكاردو بالرغبة في الذهاب للاستجمام بضعة أيام في مزرعة بديعة يملكها في الجبل الأسود، فرافقته زوجته الجميلة، ورأى أن يروح عنها، بتنظيم حفلة لصيد السمك، فهيأ زورقين، استقل هو والصيادين أحدهما، بينما صعدت هي والنساء إلى الزورق الآخر.

وقد استمتعوا كثيراً، وتوغلوا عميقاً في البحر من دون أن ينتبهوا إلى ذلك، وعندئذ فوجئوا بسفينة باغانينو دي موناكو، وهو قرصان مشهور، ما إن رأى تلك الغنيمة حتى اتجه نحوها، واستطاع الاستيلاء على زورق النساء، لأن سرعته أبطأ، فأعجبته المرأة الجميلة (بارتولوميا)، وأمر بنقلها إلى سفينته على مرأى من زوجها الذي كان قد بلغ البر، وبالإمكان تقدير ما أصاب السيد القاضي، وهو يرى ذلك خاصة أنه غيور يخشى عليها من الهواء نفسه، فقد راح يتذمر في بيزا وأماكن أخرى من نذالة القراصنة من دون أن يعرف من الذي خطف امرأته أو أين ذهب بها، أما باغانينو فقد راقه جمال المرأة الباهر، وبدا له أنه أنجز عملية موفقة، ولأنه لم يكن متزوجا، فقد فكر في الاحتفاظ بها، وراح يخفف عنها، ويلاطفها، للتوقف عن البكاء، وعندما خيّم الليل، ولأنه لم تكن له تقاويم خاصة بالامتناع عن النساء، فقد واصل التخفيف عنها بصورة عملية هذه المرة، إذ بدا له أن التخفيف عنها بالكلام لم يعط فائدة في النهار، وقد فعل ذلك بطريقة جعلت الشابة تنسى القاضي وقوانينه بسرعة، وعند وصولهما إلى موناكو، واصل معاملتها بكل تكريم سواء في النهار أم الليل، ومع مرور الوقت، عرف السيد ريكاردو مكان وجود زوجته، فذهب بحثا عنها، مصمما على دفع أية فدية تطلب منه، اجتاز البحر ووصل إلى موناكو ورأى زوجته، ولأنها رأته فقد سارعت إلى إخبار باغانينو، وفي اليوم التالي ذهب السيد ريكاردو للقاء باغانينو ونشأت صداقة بين الاثنين، وكان الأخير مستعداً لما سيطلبه الزوج، وهذا ما حدث في أول فرصة بدت مناسبة للسيد ريكاردو، إذ طلب منه أن يعيد إليه زوجته عارضا عليه الفدية التي يريد، فرد باغانينو باطمئنان:

- أنت هنا على الرحب والسعة يا سيدي، ولكي أجيب باختصار أقول لك ما يلي: صحيح أن لدي في بيتي امرأة شابة، لا أعرف إن كانت زوجتك أو زوجة أحد غيرك، لأنني لم أكن أعرفك ولم أعرفها هي كذلك إلا منذ أن بدأت تعيش معي منذ بعض الوقت، فإذا كنت أنت زوجها كما تقول، ولأنك رجل نبيل كما يبدو لي، فسوف آخذك إليها، فإذا صح أنها تعرفك وقالت إنها زوجتك مثلما تزعم، وإنها تريد الذهاب معك، فإنني سألبي طلبك وأكتفي بأخذ الفدية التي تقدمها إلي، أما إذا كان الأمر غيرذلك، فسيكون من الدناءة انتزاع تلك المرأة مني، لأنني شاب وأستطيع أكثر من أي شخص آخر إرضاء رغبات زوجة، وخاصة هذه المرأة التي أجدها أشهى من كل من عرفت مما النساء.

عندئذ قال السيد ريكاردو:

- إنها زوجتي بكل تأكيد، وإذا ما أخذتني إليها سيظهر لك ذلك على الفور، لأنها ستهرع إلى معانقتي، ولهذا أريد للأمور أن تجري مثلما اقترحت أنت.

هلم بنا، قال، باغانينو:

انطلقا إلى بيته، وبينما هما جالسان في الصالة، أمر باغانينو باستدعاء الشابة، فجاءت بهندام ومظهر جيدين، واقتربت إلى حيث كان يجلس السيد ريكاردو مع باغانينو، ولكنها لم تقل للأول أكثر مما تقوله لأي غريب يأتي بصحبة باغانينو، كان القاضي يتوقع أن يُستقبل بفرح عظيم، فاستولت عليه الدهشة، وبدأ يفكر.. ربما غيّر الحزن والغم ملامحي كثيراً فلم تتعرف عليَّ، ثم قال لها:

- كم كلفني غاليا يا زوجتي اصطحابك لصيد السمك، لأنني لم أشعر قط بحزن عظيم مثل حزني حين فقدتك، وأنت فوق ذلك تكلميني بفتور شديد أخشى معه أنك لم تعرفيني، ألا ترين أنني زوجك ريكاردو، وقد جئت لأدفع ما يريده هذا السيد من مال لاستعادتك، وقد رضي بشهامة قبول أي مبلغ أدفعه له؟

نظرت المرأة إليه، وقالت مبتسمة:

- أتحدثني يا سيدي؟ تأكد من أنك لست مخطئاً، لأنني لا أتذكر أني رأيتك من قبل قط.

فأجابها السيد ريكاردو:

- انتبهي إلى ما تقولين، وانظري إلي جيداً، تذكري وسترين أنني زوجك ريكاردو دي كينتسيكا.

فردت المرأة:

- المعذرة يا سيدي، ربما كان النظر إليك لا يليق بعفتي ويسيء إلى شرفي، لكنني أمعنت النظر إليك بما يكفي للتأكد من أني لا أعرفك.

وظن أنها تقول الكلمات منصاعة لخوفها من باغانينو، فأمل أن يلتقي بها على انفراد ليعيد المحاولة، وطلب من باغانينو أن يسمح له بالتحدث إليها في غرفة على انفراد، فقال له باغانينو أنه يرحب بذلك شريطة أن لا يعمد إلى تقبيلها، على الرغم منها، ثم أمر المرأة بأن تذهب معه إلى إحدى الحجرات لتسمع ما يريد قوله، وأن ترد عليه كما تشاء، وعندما صارت وإياه في غرفة واحدة، قال لها:

- يا قلب جسدي، يا روحي المعذبة وأملي ألم تتعرفي على زوجك ريكاردو الذي يحبك بجنون؟ ما الذي جرى لك؟ أتغيرت ملامحي إلى هذا الحد؟ آه أيتها العينان.. البديعتان أنظراني جيداً!

فغلب المرأة الضحك:

- أنت تعلم أنني لم أفقد ذاكرتي إلى حد عدم التعرف إليك يا ريكاردو دي كينتسيكا زوجي، ولكنك لم تعرف عندما كنت عندك كيف تقدر شبابي وجمالي، ولا كيف تلبي رغباتي واحتياجاتي الأخرى بعيدا عن الطعام والثياب، وإذا كانت دراسة القوانين تروقك أكثر من المرأة فما كان عليك أن تتزوج، مع أنني أرى في الواقع أنك لست قاضيا بقدر ما أنت داعية أعياد وعطل، وأؤكد لك أنك إذا ما منحت حقوقك وفلاحيك كل تلك العطل والأعياد التي منحتها لحديقتي الصغيرة، لما جنيت حبة قمح واحدة أبدا، أما هذا الرجل الذي منحني الله إياه فيرضيني تماما، فمن هذا الباب لا تدخل أيام سبت أو أحد أو جمعة، ولا أيام امتناع ديني أو صيام بل على العكس تماما فندف الصوف يجري ليلا نهارا، ولهذا أريد البقاء والعمل معه ما دمت شابة، أما العطل والغفران والصيام فسأؤجلها حتى الشيخوخة، فانصرف إذا وواصل رصد أيام أعيادك وصومك من دوني.

سمع السيد ريكاردو كلماتها بحزن شديد، وعندما انتهت قال لها:

- آه يا روحي المعذبة ما هذا الكلام الذي تقولين! ألا تفكرين في شرفك؟ أتفضلين البقاء هنا في الخطيئة كعشيقة لهذا الرجل، على العيش في بيزا زوجة لي؟ إنه سيلقي بك جانبا عندما يمل منك؛ أما معي فستكونين محبوبة ومصونة على الدوام، هل ستتخلين عن شرفك من أجل نزوة جامحة؟ لا تقولي هذا يا حبيبي وعودي معي وسأبذل جهدي لتلبية رغبتك.

وردت الشابة قائلاً:

- لا أظن أن هناك من يهتم سواي بشرفي، وأقل الجميع اهتماما هم أهلي الذي زوجوني منك، وعندما لم يهتموا آنذاك بشرفي فلن أهتم بشرفهم الآن.

Hasanhamid55@yahoo.com

للأزمة مخرجها الواعد

• حسن إبراهيم أحمد

في حقول التفكير عالي الشعور بالمسؤولية، مع بعض العمق والجرأة، يمكننا الإشارة إلى مراحل ثلاث مرت بها بلادنا العربية، أو بعضها في العصر الحديث، وتمت معالجتها لاستيضاح دروسها.

تحدد هذه المراحل بثلاث: مرحلة النهضة، مرحلة الثورة، مرحلة الأزمة التي يتوقف الخروج منها على التفكير النقدي والجدي، الإرادي لا الإرادوي، في جميع الحقول، وبكثير من العمق قبل الانخراط في مخاضات لا ندري مصائرها.

أول الملاحظات في الموضوع، والذي يحتاج لمعالجات مستفيضة، هي أن النهضة في بلادنا لم تكن ذاتية المنشأ، بل اقتباساً من الغرب عندما بدأ الاحتكاك به من قبل المثقفين العرب، وقد كانت النهضة هناك قد حصلت وغيّرت وجه المجتمعات الغربية، ما أغرى بتقليدها.

أول ما توصف به النهضة في الغرب، أنها كانت فعلاً مجتمعياً، فالمجتمعات الغربية كانت تنهض بكليتها في جميع مناحي الحياة، حيث بدأت المجتمعات تغير وجوه حياتها، حتى أن ذلك وصل إلى إصلاح علاقة الإنسان بعقائده الدينية، أي علاقته بالكنيسة فيما سمي بالإصلاح الديني، مع التنبيه أن الفساد لا يلحق بالدين، بل بعلاقة الإنسان بالدين ومن يمثله.

كانت التغيرات التدريجية راسخة وحاسمة، يصعب منعها لأن فئات المجتمع تنخرط بها بأغلبية كبيرة، فتنجح في صنع التغيير الإيجابي في كل تفصيل من تفصيلات حياة الناس، ويمكن استجلاء ذلك في مؤلفات مثل ((الحضارة الأوروبية في عصر الأنوار)) تأليف: بيير شونو. وإدراك التفصيلات الصغيرة، ما جعل تجنب الأخطاء الكبيرة ممكناً.

كان ذلك يجري بهدوء أو بصخب، ويستهلك وقته اللازم ليكون راسخاً يصعب العودة عما ينجزه، ما يثبت جدواها. لقد كان القديم البالي المسبب للإعاقة يتوارى تدريجياً، ليبرز مكانه الجديد المتمكن.

في هذه الأحوال التي يطول شرحها، كانت الثقافة من آداب وفنون وفلسفة وغيرها، تساير هذه التطورات، وتبدع كما تبدع حياة الناس في الطبيعة والعلوم والاقتصاد وغيرها، فكانت الذروة في التعبير عما يجري وتخليده تصويراً وتسويغاً وبث الاقناع به. وكان ذلك على مراحل مرافقة لما يحصل من تحولات وإبداعات في الحياة الاجتماعية، بدا في تطوير المذاهب الأدبية والفنية وغيرها. إنه لم يكن منفصلاً، سابقاً أو لاحقاً، بل كان وعياً مواكباً لحراك المجتمعات.

نتوقف لنسأل: ما الفارق بين ما حدث في الغرب الأوروبي، وما أسميناه في بلادنا نهضة؟ أين كانت المجتمعات من كل ذلك، أي من صناعة المعجزات والتغيرات العميقة التي تنبري الثقافة لمواكبتها وتخليدها؟

بقول سريع وحاسم، إن النهضة في بلادنا العربية، لم تكن أصيلة، أي ذاتية المنشأ وانتاجاً محلياً، لذلك لم تخترق جيولوجيا المجتمعات العربية. لقد كانت تقليداً واقتباساً، لما لم يتولد في مجتمعاتنا، واقتصرت النهضة على مجالات الثقافة أكثر من غيرها، ابتداء مما عبر عنه نشاط رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي وبطرس البستاني، ومن لحق بهم من الرواد التنويريين الذين أطلقنا على فعلهم في إرساء بداية وعي جديد، اسم النهضة تطلعاً لما كان قد جرى في أوروبا، متفائلين بضرورة الخروج من التخلف، لكن من دون أن تكون فئات الشعب شريكة في النهوض، وهي التي يعوّل عليها من أجل حراك نسقي زاخم يشمل كل جوانب المجتمع.

حصلت النهضة جزئياً، أي ليس على كامل مساحة وعمق حياة المجتمعات. ولا تزال مجتمعاتنا العربية بالرغم من كل ما حصل من تقدم وتغيرات لا تنكر، من دون المأمول والقادر على نقل المجتمعات إلى واقع أفضل. إنها لم تتجذر وتتأصل، ولم تخترق الطبقات الصلبة السميكة من التخلف الذي كان أو المهمات من أجل القول إننا نهضنا، ودخلنا عالم الحداثة المتجذرة لا السطحية.

لا تزال تمزقاتنا الاجتماعية تعبر عن غلبتها على مسرح الحياة مؤكدة ثبات المعوقات. فمجتمعاتنا الأهلية عقدية كانت أو نسبيّة، هي التي تبرز على السطح في أي حراك، معلنة أن القشرة البراقة للتقدم الاجتماعي خادعة إلى حد كبير، والدليل أن تشققاتها سرعان ما تظهر مع بداية الأزمات الحقيقية، عندما تحرض، وما أكثر المحرضين.

نحن لم ننتقل من المجتمع البطريركي (الأهلي- الأبوي) إلى المجتمع المدني، حيث الموقع الأكيد لإرساء أول مبادئ الحداثة والخروج من التخلف. مع الإقرار بأن مجتمعاتنا شهدت تطورات لا تنكر، وإن كانت غير حاسمة لنقلنا إلى حداثة حقيقية تتجاوز القشور والعصبيات القاتلة.

ما أقوله تدعمه دعوات قوية للانخراط في نهضة ثانية أو ثالثة. نقرأ مثل هذه الدعوات عند الفيلسوف ناصيف نصار في أكثر من كتاب له. وكنت أود لو ندعو إلى استمرار النهضة الأولى لإنجاز إجابات على اسئلتها واستكمال مشروعها غير المتناقض مع الدعوات الحديثة، وربما المكملة، فنقول: النهضة مستمرة، فالنهضة الجديدة تعني في بعض ما تعنيه، أن السابقة أنهت مشروعها، وهذا مالم يحصل، ولو حصل ما كان علينا الدعوة إلى نهضات جديدة، والفارق بين المشروعين يهتم بإنجاز ما بدأناه، لا أن نقطع المسارات إلى حقول جديدة تاركين غيرها دون حل.

المرحلة الثانية في التحقيب المعلن، هي مرحلة الثورة التي تعلن الموقف الصارم من الواقع المرفوض، بضرورة الانخراط في نشاط حاسم للانتقال إلى تجاوز منطق التطور البطيء، إلى الالتزام بالحلول الجذرية، وفي هذا شهادة على أن النهضة لم تنجز، وما نحتاجه هو الثورة. وقد كنا قد جربنا بعض مفاعيلها في مواجهتنا للاستعمار في أكثر أقطارنا العربية، إلا أن الثورة المطلوبة هنا، هي تلك التي لا تكتفي بطرد المستعمر، بل بطرد التخلف الذي نعانيه بمفاعيل القرون السابقة، والخروج إلى حياة جديدة، أي بالتركيز على البعد الاجتماعي للثورة، والذي يعد بانبثاق أنظمة حكم تقدمية، كان من شأنها إعلان الكثير من هذه الثورات التوجه نحو الاشتراكية التي كانت واعدة في مرحلة ما، وبذلك كانت الدعوة لطرد المستعمر مترافقة بهذا البعد الاجتماعي كما حصل في الجزائر وفي اليمن الجنوبي.

الثورة في بعدها الاجتماعي المقصود هنا، هي تلك التي حصلت بقيادة قوى وصفت نفسها أنها (قوى تقدمية) اندفعت لاستكمال مشروع التحرر من الاستعمار، ليكون محرراً من التخلف المهيمن، وذلك ببناء المجتمع الاشتراكي أو الجديد، تحت تأثير مناكدة الاستعمار بتقليد عدوه، أي عالم الاشتراكية الذي تمثله كتلة عالمية بقيادة الاتحاد السوفيتي. وقد انتشرت عدوى هذه الحراكات المنتشرة عالمياً بقوة، تحت شعارات اصطبغت بالمحلية، حيث كانت فروع الأحزاب الأممية والمتأثرة بها، من قومية أو محلية، تنتشر متأثرة بذاك البعيد القادم. إنما من جديد كان هذا القادم إنتاج عالم آخر غير عالمنا، وله غير ألواننا، سواء كان من الغرب أو من الشرق، ففشلت تبيئته.

لقد كانت حمى الوهج اللافح والموجع للتخلف، وحدة الشعور به مع قلة القيمة والقصور الشديد، هي المحرك الأساسي لهذه الثورات التي حصلت وليس بين يديها سوى الأحلام (الصادقة ربما)، معمدة بالرغبة في تجاوز الإعاقة والواقع السيء في أكثر بلدان الوطن العربي، حيث كان من أبرز شعاراتها: الوحدة العربية، وهذه كانت تطرح لأن المأمول من الإمكانات الكبيرة للأمة، كان واعداً، دون ما كانت تعد به إمكانات كل قطر منفرداً. ولم يكن في بال الثائرين أن هناك أفضليات مغاربية وخليجية وغيرها، يمكن أن تطرح في الواقع، ثم تبدي نجاحاً جزئياً.

البحث في مشروع الثورة الحالم، يحيلنا إلى الماضي القريب، حلم النهضة التي أردنا اختطافها من حيث وصلت إليه في بلاد الغرب، وتشابه هذه المشاريع التي كان البديل أن نبنيها لبنة لبنة بهدوء وتمكين. إنما أردنا إنجاز التطور المنشود دون التطلع إلى البنى الاجتماعية التقليدية ومدى هيمنتها داخل الجماعات العقدية والقرابية. وعندما حصل ذلك لم تنجو التنظيمات التقدمية من أذية هذه البنى التقليدية، وعندما رأت زخمها القوي، رأيناها في مشاهد كثيرة تدخل في بنيتها وتفعل فعلها في داخلها، ولا نعدم أن نجد قوتها داخل القيادات، أو في الانتخابات من أي مستوى، فنعود إلى منطق سادتها في الجاهلية، سادتها في الإسلام. ولم يكن القضاء على هذه القواعد الصلبة للمجتمعات الأهلية ممكناً بسهولة، ولا يمنع الحديث عنها من دون منع تنميتها وإعادة إنتاجها.

كنا نؤكد نظرياً على ضرورة تجاوز التخلف، ونحارب المقولات النظرية والإعلامية الفجة التي تتحدث عن الانقسامات العقدية والقرابية، لكن دون التأكد من أنها تجدد مواقعها عملياً، ودون إيجاد علاقات بديلة ذات طابع مدني تنظيمياً، إلا على مستوى الشكل، والذي يسهل اختراقه، ولم ينجح من ذلك أعتى الأحزاب وأكثرها تطرفاً باتجاه التقدم والعلمانية، ما أفقد هذه قدرتها على المقاومة واجتثاث طاقات الخصوم ومفاعيل العصبية.

كان الأمر يشبه طمر الألغام عندما يتم تجاوز الموضوع بالتوقف عن المقاربة العلاجية، مع كثير من محاباة القوى التي لا تزال تختزن قوة تجديد المجتمع الأهلي المدعوم من الخارج والجاهز لإعادة إنتاج التبعية للخارج العربي أو الإسلامي أو العالمي الذي لم يكسل في إعادة إنتاج هيمنته التي يعبر عنها بفجاجة منقطعة النظير وغير معهودة، سيد البيت الأبيض الأمريكي بأن أنظمة حكم عربية لن تكون قادرة على البقاء في السلطة أسبوعاً واحداً دون الدعم الأمريكي. وهي ترضخ دون مكابرة ولا معاندة.

هنا يبدأ مشروع الأزمة، أو المرحلة الثالثة، بالتكشف. لقد جرت محاولات تكييف الأهداف المعلنة للقوى الموصوفة بالتقدمية، مع مصالح الأهلية والقوى التي تتزعم الحراك في المجالات الوطنية. فقد أصبحت شعارات الحرية تعني هذه القوى ومن يدور في فلكها. وأصبحت الوحدة مطلباً يزداد استعصاء، فيغلب التذرر على قواها بتغذية من الداخل والخارج. كما وصلنا في مجال العدالة الاجتماعية إلى حد تكييفها مع السوق المرتبطة بالعالم الرأسمالي الذي كان عدوها، خاصة بعد انهيار العالم الاشتراكي، ودون الأخذ في الاعتبار الإرباكات التي يحدثها ذلك على المستويات الاجتماعية وعيش الفئات الفقيرة التي استبشرت بالثورات الاجتماعية.

كل القوى الناشطة على امتداد الوطن العربي، لم تكن فاعلة في تغيير حقيقي عميق أو ثوري. كلها أو أغلبها كانت شريكة في إبقاء الأوطان دون حصانة، سواء كانت القوى التي ادعت الليبرالية، أو الإسلامية وارثة التخلف المشين، أو التي وصفت نفسها بالتقدمية، والتي بدا التخبط على أغلبها واضحاً. ولم نر أياً من هذه القوى يقدم مراجعة مسؤولة وجريئة لنشاطه وأدواره التي أوصلت إلى ما أوصلت.

إذا كانت بعض المنجزات في مجال التنمية البشرية قد حصلت، كما في التعليم والصحة والبنية التحتية.. الخ، فما مصير التنمية الإنسانية، من الديمقراطية إلى التسامح والشفافية وحقوق الإنسان وتمكين المرأة... الخ؟ إن من الهام جداً الانخراط الفاعل في التنمية الإنسانية لما في ذلك من ضمانات في مجال إحداث وعي مختلف بالعالم والعصر والاستثمار في الوعي الذي يمكن من موقع ملائم بين الشعوب.

الكثير من الأدلة على أن النهضة لم تحصل بما يقطع مع الماضي القروسطي. كذلك الثورة التي كان مأمولاً منها حسب وعودها، أن تكون البديل الحاسم الذي يتقصى كل جوانب الضعف ومواقع القصور، فيجد لها البدائل، بما يمكن الشعوب من الانخراط في الحداثة، بل ومنافسة القوى الأخرى.

الأزمة المنتجة في بلادنا، جعلتها غير عصية على اختراق المخترقين الذين لم تكن قواعدهم خفية ولا تهديداتهم ملتبسة، مما لم يكن يقبل الإهمال كما حصل فأودى إلى ما أودى، وأقل ما يقال إنه أظهر سذاجات في الخبرات المتراكمة وفي البناء الاجتماعي الوطني، لا يليق بأبناء العصر الذين التمسوا تهديدات ذلك في مشاريع معلنة للتنفيذ، ولم تجد الممانعة الكافية في مراحل التحضير من قبل القوى التي طالما أعلنت رغبتها في إبقاء بلادنا العربية تحت هيمنتها.

توصيف الأزمة لا يبدو عصياً على الفهم، كما يعد بمعرفة ما لم يكن معروفاً على نطاق واسع، ويضع المستقبل أمام امتحان عسير. ومن شأن ما حدث أن يضع البلاد أمام مؤشرين متناقضين، فإن أحسنا الإفادة من الدروس فنحن في طريق يقظة لتجاوز المحن على امتداد بلاد العرب، وما أحدثته من فجائع خارج القدرة على التصور، وإن لم نحسن، فنحن أمام كوارث مركبة لا تبقينا مؤهلين للحياة الكريمة. إن حصاد المحنة في موقع الاختبار، فالجانب المر الذي تجرعناه يفترض أن يحيلنا إلى الجانب الواعد الذي هو رهن وعينا إن أحسنا تدارك الفوات الذي خلفته مرحلتا النهضة والثورة، وما يمكن أن يبنى على ذلك.

أسئلة هامة يجب أن تطرح، مثل: هل تم استيعاب الدروس، ما يتعلق منها بالداخل أو الخارج، وما يبقي التهديد قائماً؟ هل يتم البناء على ذلك من أجل الخروج من المآزق، أي بانتهاج مسارات لا تدفع إلى مزيد من القصور؟ وكيف لنا أن نستغل مواردنا البشرية والمادية من أجل ذلك؟ هل أدركنا أنه لا يجب أن نحسن الظن بالغرب؟

التدبير المستنير هو الطريق الأصوب والتصور الأصوب لعلاقة الإنسان برغباته، خاصة تلك التي يحولها إلى خطط تخرجه من العجز والقصور في مواجهة الواقع الناقع. والاستنارة أو التنوير جاء لينشر مبادئ العقل والعقلانية في تدبر الإنسان لشؤون حياته ابتداء من أوربا، فهل يمكننا بعد ثلاثة قرون أن ننخرط في تنوير له ذات الفاعلية، كي لا نبقى في حال التخبط؟

بساطة ماتعة وحزن دافئ في ضيافة "ملل"

• حسني هلال

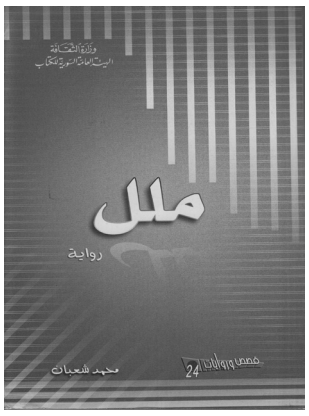

غير حادث وحديث..

أقوال وأفعال.. شعاب ودروب.. أزمان وأماكن.. وأحوال ومعان، تتوارد مخيلتك وتتضايف أفكارك؛ لدى انفرادك بقراءة "ملل" لكاتبها "محمد شعبان". تاركةً في نفسك مشاعر شتى. بعيداً عن كل ما من شأنه، أن يصبَّ في طاحونة الملل أو يدور على رحاها.

مع رواية «ملل»، تترجع إليك صور وذكريات متنوعة، وتتولّد فيك ألوانٌ معانٍ وأمنيات.

تتذكر ديوان "بسيط كالماء، واضح كطلقة مسدس" للشاعر رياض الصالح الحسين..

تعود لحلقات مسلسلي "ضيعة ضايعة" و"الخربة" للأديب ممدوح حمادة..

وتتخاطر انطباعاتك المباشرة عن الرواية، مع فيروزيات عدّة، إضافة لما اشتملته الرواية من أغاني فيروز الساحرة.

- 1 -

أن تتكلم، بيسر ودقة وشفافية، عن أعقد المشاكل، وأكثرها قرباً من المسكوت عنه والمُحرَم، في مجتمعك. فلا شك أن ذلك لعلى جانبٍ من الجرأة والمسؤولية والكفاءة في آن.

(يستطيع الأخرس أن يشتم منْ يشاء من أهل دمشق، من دون أن يلقى عقاباً من أحد.. أي نعمة هذه!)1 و(في بلادنا لا يجرؤ الخطأ على التعاطي مع السجلات الرسمية).

ولكن.. من يقول، إن حالك ستكون أخفّ وطأة، حين تتصدّى: إبداعياً، بيسر ودقة وشفافية، لموضوعات عادية وبسيطة، وأكثر ملامسة من قبل السواد الأعظم؟

كأني بالبساطة وقد تحررت يوماً، بقصد التفكهة والفنتازيا، من جسديتها الأسرة "إعجاباً للغير وحبساً للذات"، ومن قميصها الكلموي "من كلمة". لتتجسد عن طريق الحلول أو التقمص، صبيةً:

فإذا هي، بجمالها الطبيعي، من أروع النساء، وأقلهنّ تكلّفاً، صبية كـ"سميرة الحورانية"..

(وهي تجرجر ثوبها المخملي الأسود وراءها. تشبه قمراً هذه الشغالة..)..

تجسدت فكرة:

فإذا هي، في أذكى الروايات، كي لا نقول أكملها "موضوعاً، معالجةً، وخطاباً". مع احتفاظها بسوية فنيّة بائنة، ودون التخلي عن بنات نعش السرد، سيرورة وصيرورة..

(أخذت أختي الصغرى التفاحة وهربت بها إلى المطبخ.. كدّت أطقّ.. كرهتها؛ أختي وليست التفاحة! ثم عندما كبرت دفعني الندم إلى محبة زائدة لهذه الأخت.. سقطت دمعة من عيني.. لقد ماتت أختي قبل أن أطلب سماحها وأعتذر منها..).

- 2 -

تتخفف رواية "ملل" من كل ما يربك قارئها، ويثقل كاهلها، من شخصيات وثيمات. مكتفية من الشخصيات بـ:

"مازن الشومري"، أبو فاضل، رب أسرة متقاعد. أخذ التقاعد منه – كما يقول – أشياء عزيزة، أهمها الحلم به، ولم يعطه غير الملل.

"فاديا أوغلو" زوج مازن وأم أولاده، عمرها قريبٌ من عمره، مدرّسة محاسبة في الثانوية التجارية، ومتقاعدة مثله أيضاً.

"سميرة"، شغالة شابة وجميلة، تعمل في بيوت من منطقتي "الشعلان" و"الروضة" في دمشق، من ضمنها بيت مازن الشومري وصديقه أبو جابر. الشغالة التي تارةً يراها مازن حجلة بريّة، أشبه ما تكون بتلك الحجلة التي فرت من أمامه، عندما كان صغيراً برفقة والده، في واحد من مشاوير الصيد في منطقة اللجاة في السويداء. وتارة.. (يراها كلها، ملفوفة بالمخمل لا يظهر منها إلا أصابع الأيدي الندية والوجه الشهي! أحب الملفوف.. منذ صغري أموت فيه.. مطهواً وفي السلطة. وأنا على استعداد الآن لأن أعصره وأشربه كدواء لا شفاء لي منه إلا فيه! وهذا الغموض الذي يوحي به اختفاء الأوراق تحت بعضها يجعل كل ورقة تغريك بأختها، فتموت إغواء قبل أن تصل إلى اللب..).

ومن الثيمات بـ:

حال المرء بعد إحالته على التقاعد. وما يستجد عليه من منغصات، ويعتور حياته من استهدافات السيدة ملل وسائر أفراد أسرتها، مما يستشري شيئاً فشيئاً في حياة المستهدَف. إلى أن يُفرغها من نفسها. لاسيما إذا كان المتقاعد، كمازن، مُبتلاً بزوج كـ"فاديا" (المتخصصة به منذ غادره عقله، وانشغل بها عن دراسته الجامعية قبل حوالى أربعين عاماً). والتي يقول في اعتزازه بها:

(إنها لو رأتني في بحر الوحل، لما رفعتني منه إلا للحظة، ليراني الناس ملطخاً بالوحل، ثم ترميني فيه لأغطس!).

مع كل ما يكتنف حياة "ملل" من أسباب وجع، ويعتريها من ضروب أسى. آلت جميعاً إليها، من حياة بطليها – مازن وفاديا – اللذين تكفلت نار الغيرة والخلاف بتأثيث بيتهما الزوجي. فقد انتقلت حرارة تلك النار، بوساطة خفة دم ورشاقة أسلوب الروائي، إلى المتلقي، حزناً دافئاً:

يرفع ضغط المسؤولية.. لكن لا يغيّب الوعي.

ويلذع صور المحبة.. لكن لا يكوي القلب!.

- 3 -

على الرغم مما تحققه العتبات: العناوين الفرعية، الإهداءات، الترويسات، وغيرها من الأعمال الأدبية التي تستضيفها؛ من تمكين لغايات كتّابها، وما تسبغه عليها من رتوشات، قد تَسهُم – على تواضع حجمها – في اكتمالية اللوحة النهائية للعمل، نصاً وروحاً. في حال كان توسّل تلك العتبات في مكانه.

على الرغم مما أنف ذكره، فقد حرص "الشيف شعبان" كما في أكثر طبخاته، أن يقدم لنا طبقه الروائي، منفرداً وصرفاً على مائدته الأدبية. وغير خاف على هواة التغذية وذوّاقة الطعوم، ما يعنيه تصرّفه من ثقة بطيب طعامه أولاً، وبحسن تذوّق ضيوفه ثانياً. ما لا يتعارض مع احتمال أن يكون "شعبان" قد دسَّ "زوم" توابل عتباته، في "مرقة" طبخته!.

× الرواية – ملل /216 ص/ 20 سم.
× الروائي – محمد شعبان.
× الناشر – الهيئة العامة السورية للكتاب.
× العام – 2009 م.

١ -ما يقع من النص ضمن قوسين كبيرتين، مقبوسٌ من رواية «ملل».

عن خليل عبد القادر.. الإنسان والفنان !

• محمد باقي محمد

نحن إذ نقول بالقراءة في مادة ما، إنّما نقوم بنقدها، والموقف من عمليّة النقد - غالباً - يترجحان في خانة الرضى أو الغضب، أمّا حين تحضر صداقة وطيدة كانت تجمعنا - كما في حالتنا هذه - فقد تكون مقالتنا هذه في تجربة الفنان خليل عبد القادر مجروحة، على الرغم من مرور سنوات طويلة على تغرّبه، إنّ الوقوف بجزء من تجربة فنّان لا تنقل لنا عالمه بشكل دقيق، ولكنّ الغربة لصّت أ . عبد القادر، فانقطعت بيننا السبل، وكان لا بدّ ممّا ليس منه بدّ، على هذا تعالوا نتفق على أنّ العمل الفنيّ كتلة متماسكة لا تتجزّأ، تستمد معناها من اشتباك عناصرها المكونة في تفاعلها الوظائفيّ، ومن ثمّ لا بدّ من الوقوف على كل تفصيل، بما هو تفكيك، لنتمكن من فهم العمل من خلال نقده، بعيداً عن الشخصنة! شريطة أن نعي بأنّنا نقوم بقراءة محتملة من قراءات عديدة لا حصر لها، قد تقصر في استنفاذ مسيرة أضحى عمرها اليوم ينوف على الخمسين عاماً، وإلاّ فإنّ مُمارستنا ستنضوي في خانة القسر، ما يُخرجها من ملكوت النقد!

بهذا المعنى سنذهب - بداية - إلى أنّنا مع أ0عبد القادر أمام ملوّن من طراز رفيع، طراز لا يكتفي بالتلوين، بل يشتق غير لون بكر من تمازج الألوان، وهو إذ يلوّن كامل المساحة - في لوحته - غالباً، إنما يلعب على ثنائية الألوان - حارة كانت أم باردة - في تناغمها أو تضادها، ثمّ يعمد إلى حركة شخوصه في إحالاتها المتباينة، ليلعب على دلالاتها، ويستحضرها في حالاتها المُختلفة، ليتحصّل - في المجتبى - على تناغم أو تضاد صادم لوعي المشاهد ومدهش!

وبهذا المعنى - أيضاً - يتحرى قارئ لوحات أ . عبد القادر - عبر مشهد بصريّ مريح في ظاهره وغني - عن أسئلة مقلقة، وعلى مستويات مختلفة، قد تبدأ بالقلق الوجوديّ، لتجاوز أطراف الكون، أي أنّ أ . عبد القادر لا يترك مشاهده يركن لراحته البصرية، بل يتقصد إقامة خطاب مواز يسهم في رفع تذوقه، وطرح أسئلة وجوديّة، متجاوزاً في هذا الفلسفة الوجوديّة، إلى الوجود والعدم.. إلى الحياة في احتدامها وتناقضها وتشظيها!

إنّ أ . عبد القادر إذ ينجز لوحة بصرية ، يسعى إلى توريط المشاهد في لعبة مضمرة، كيف؟ بطرح أسئلة تدفعه إلى قراءة مطابقة أو مفارقة لها، يستنتج منها على نحو مُبهم - غالباً - أنّها نقطة تقاطع وبؤرة تفجير، أي أنّه يصل إلى مرحلة التنوير! ألهذا يطمس خليل الكثير من معالم شخوصه، أو يهمل شيئاً من تشريحها، وهو الخبير بالتشريح، مُركّزاً على الأنثى، وذلك بالرجوع إلى آخر لوحة له رأيناها اليوم منذ وقت!؟ فإذا بنا نقف بعالم لامتناه يتجاور أو يتمفصل ويتفاعل، ليشي بالانكسار الإنسانيّ العميق ، ذلك أنّنا نظلّ محكومين بالنقص كبشر، تماماً كما نظلّ محكومين بالأمل، على حدّ تعبير الراحل سعد الله ونوس !

نحن إزاء انكسارين إذاً، واقعي على وجه التخصيص تشي به شخوص أ .عبد القادر، بسبب الفوات في مجتمع ذكوريّ، هو الذي عاش مجتمعين - شرقيّ وغربيّ - وإنسانيّ على وجه التعميم يتبدى في قلق وجوديّ، بالمعنى الفلسفيّ - هذه المرّة - للمصطلح، لا يخلو من تواتر الأسباب وتوترها، إذ يكفي وعيها بمآلها إلى الفناء - مثلاً - لتنكسر حتى آخر راية !

لكنّ أ . عبد القادر لا يهمل الجميل في الأنثى، ربّما لأنّه كفنان يشتغل على أقانيم ثلاثة خالدات، الحق والخير والجمال، إذ تتهيف الخصور على وله ، وتستدير الأوراك كما في قوس من القمر، على هذا فهو لا ينأى بها عن الحب كقيمة، حتى لو ضيع الرجل سؤال الحب عبر تأكيد سيطرته على المرأة، وبالتالي سؤال السعادة، بعد أن استكمل هيمنته على المرأة، في مجتمع ذكوريّ فظ استأثر بطفولة الفنان أ . عبد القادر وشبابه!

وهل يغفل المشاهد عن تجريد محسوب يقوم به أ . عبد القادر، ليشي بانكسار من نوع آخر، قد يجد أسبابه في تمفصل الاجتصادي بالثقافي، وحتى بالسياسيّ، ألهذا أدارت نساء عبد القادر في لوحته - تلك - ظهورهن للقارىء - بالمعنى المجازي للمُفردة - مخفيات صدورهن والقلب، في إشارة إلى إخفاق علاقة الحبّ، لغياب التماثل مثلاً، وحضور الامتثال أو الخضوع، أي لغياب التكافؤ والاحترام والمساواة، على العكس من مجتمعات أخرى!

مع أ . عبد القادر نحن أمام أعمال تتداخل فيها العوالم والمعالم والأفكار في توريا تها المتداخلة والمتباينة بآن، أو في تجلياتها المُختلفة، فهل كنا نضيء تجلياً لها، أم أنّنا كنّا نحاول الإحاطة بها، ومن ثمّ تفسيرها!؟ أم أنّنا كنّا ننمذج لعالمه الفنّيّ؟! صحيح أنّنا كنّا نسائل العمل الفنّيّ من داخله، لكنّنا سنقرّ بعجزنا عن التحليل الناجز له، ربّما لأنّنا تعاطينا معه كمثال توضيحيّ أو كحقل اختبار، لا كعمل يُسائلنا قبل أن نسائله!

إنّ قراءة جزء من سيرة فنّان عاشها بين ظهرانينا لردح لا تكفي للحكم على تجربته، ذلك أنّ قراءة تجربته اللاحقة في الغرب لن تتيسّر لنا، لأسباب موضوعيّة تتعلق بتعذّر السفر، على هذا حسبنا أنّنا آلينا على نفسنا أن نقدّم عالم فنان يمور بالتجريب والتجريد والتحوير والنحت والاشتقاق والتلوين والتفكيك والتحليل والتركيب، في جزء هام من تجربته، جزء يشتمل على البدايات ومرحلة النضج، ناهيك عن نزوع متأصّل للتجريب، ولكن ألم نقل لكم إنّها شهادة مجروحة في صديق، لكن في فنان موهوب بلا حدود أيضاً - من غير أدنى شك - ما اقتضى منّا التنويه!؟

قصيدتان

•ريما خضر

أنا امرأةُ الحنين

أنا امرأةُ الحنين
وليس أشهى
لديَّ....
من الحنينِ...
ومن شجوني....
فمن شجني
سينبتُ كلَّ يومٍ
سرابٌ
للدروبِ وللقصيدِ.
أنا - السمراء -
طازَجَةٌ بحبّي
بَريقي طالعٌ
نحو النيازكْ
ولي من مُقلتيكَ
بريقُ وَجْدٍ
يُشَعشِعُ
حين أبقى في انتظارِكْ....
-------؛

حكمة فراشة

حَزانى
قلوبٌ من غواية
دروبٌ من شموع
نفوسٌ ليس تنفعها هداية
وأقـراصُ الحنـين تـدور
حول المستقر
مراقبةً...
على وجه الحياة سذاجةٌ
فـراشـاتٌ تـبـادل ضوءَها
بالعطرْ
هي حكمةٌ ما....
لموتٍ قد يُناديها
شقاءٌ في متاهةْ
ضجيج في جناحَيْها
قصيرٌ يا مداها
فُرادى تتبع الظلّ
أباقيةٌ خطاها؟؟

فدعهم

إلى الشيخ صالح العلي ورفقاه في ذكرى أبطال الجلاء

•محمد رجب رجب

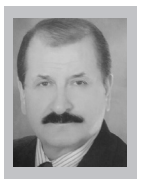

بروحك، أم بروحك، لا تحول؟
بجدك، أم بمجدك، لا تزول؟
وإنهم الكرام بنا قليل
ووحدك في منابرهم تصول
جميل أن يظل السيف كبراً
وأجمل أنك السيف الظليل
لقد عبروا على سفن الليالي
وتعبر والنجوم لك الخيول
وقفت على السراط، كما الأوالي
إليك البر والنجوى تؤول
أكابر عن أكابر مكرمات
بهن يؤصل الفرع الأصيل
فدعهم للفرار، وأنت ثبت
صهيل خطاك للجلى دليل
ودعهم للقبيلة في لظاها
فقاتلهم يظل هو القتيل
أقمت على ذرا الشعرى مطلا
مقامهم السباسب والطلول
خلائق أخلقوا خلق المعالي
وفيك تخلق الخلق الأثيل
ومذ درج الصبا كنت المجلي
شكيمتك الهدى، دمك الصليل
فكم صفعت يداك ظلام ترك
وغل بسيفك الغازي الدخيل
بـ (ورور) أم بـ(بفتوح) و(نيحا)
وبـ(البودي) و(ديميس) تجول(1)
ومنك إلى (هنانو) جسر قلب
توحد فيكما الزند الفتيل
مع (الباشا) تآخيتم ليوثاً
فروض فداكما الوطن الجليل
بضوع الغوطتين شذى عناق
على بردى تساقته الشبول
فلا الإعدام أجفل فيك نسغاً
وذل العفو يأباه القبول(2)
وقولك، يوم (بيلوت) تغاوى
زهواً، والغليل هو الغليل: (3)
فما غادرت ساحاً من جهاد
وعشرة يستشيط بها الصهيل(4)
لتهزمهم، وأنت رفيق سلم
وسيف السلم في الجلى صقيل
××
علوت مجاهداً، وسموت سلماً
جهاداك: المعاقل والعقول
فأين جهادهم، والخطب طام
وكل تحت إليته يبول
فذاك نهيقه شفع ووتر
وذاك نقيقه الليل الطويل
وذاك غرامه «كوندا» و(أولما)
وذاك ولا بفعلته أقول(5)
براء منك معتسف وجبن
هم الأبطال شانئهم ذليل
صباحاتٍ على رياك تترى
غيابة بدرهم ليل كليل
وتصفعهم بأنك رهن ساح
فسيفك في الوغى لا يستقيل
لعمري، ما ادّخرت فخار مجد
لأقسم، أيها الشيخ الجليل

الحواشي:
1. مواقع لمعارك مع الفرنسيين في الساحل السوري.
2. حكم الشيخ بالإعدام وحاول مقايضته بإنهاء الثورة فرفض.
3. 4. بعد وقف الأعمال الجهادية تبجح القائد الفرنسي (بيليت) أنه انتصر، فرد الشيخ: لو أملك عشرة أجياد بفرسانها لما وضعت السلاح.
5. (كوندا) و(أولما) اختصاراً لاسمي وزيرتي خارجيتي أمريكا والكيان الصهيوني عام 2006م.

لمن أشكوك؟

•علي عبد الجاسم

لمن أشكوكَ حين ظلمْتَ قلبي؟
بجارحةٍ وقد خنتَ العهودا
وتتركُني مع الأحزان فرْداً
كأنّا ما تبادلنا الوعودا
وتنسى ما توقّدَ من حنيني
وترميني بأشواقي وحيدا
وتنكرُني إذا ما اشتدَّ شوقي
تشيِّدُ بين آمالي سدودا
عَلامَ إذاً تناديني حبيبي؟
وتجعلُني بأفكاري شَرودا
أهذا ما تسميه هياماً؟
إذا أدنو تجازيني صدودا؟
وكنتُ زرعْتُ في أعماق قلبي
إذا ألقاكَ من وجدي وُرودا
فكيف سيعرفُ النسيانَ قلبي؟
فإن يسلو تعذّبُهُ مَزيدا
فإن أمعنتَ في النسيان إني
على اللوعات قد أُبدي صمودا
فكن ما شئتَ إنّ حضورَ قلبي
سيبني دائماً حبّاً جديدا
وأجني بالمحبة كلَّ حُسْنٍ
وأصنعُ في الهوى سَفراً سعيدا

لأنّكِ البحرُ

•علي جمعة الكعود

(1)
الفرقُ
بين حبيبتي و الشمسِ
أنّ الشمسَ يُصبحُ
في أتون الصيفِ
ناراً نورُها
و حبيبتي بالدفءِ
يغمرني على مرّ الفصولِ
حضورُها
(2)
لأنّكِ البحرُ ..خانتْني المسافاتُ
و لم تزلْ طيّ أدراجي الحكاياتُ
و كفّنتْ أملي المقتولَ.. أشرعةٌ
و في المراسم .. قرصانٌ و مرساةُ
مرافئُ الريح تفشي سرّ وحشتها
و للمراكبِ..... في الميناءِ أنّاتُ
و تزدريني على مرأى المدى جُزُرٌ
و دفترُ الغيبِ لا تمحوهُ ممحاةُ
وحدي أقشّرُ أحزاني ...و أنثرُها
قشراً فقشراً على أرواحِ منْ ماتوا
(3)
تبوّأتِ قلبي ..... و لم أتبوّأْ
سوى الريحِ تنثرُ شوقي المخبّأْ
صدئتُ و من قبلُ نظّفتُ روحي
و هجرُكِ مستفحلٌ ليس يُصدأْ
هواكِ نفاني إليكِ .. و عمري
إلى ألفِ عمْرٍ و عمْرٍ ..تجزّأْ

قصيد العمق

•نرجس عمران

قبل فقدان وعدة غيابات
تتكور الحياة بؤرة أمل ونعيم سرمدي
يرفل جمالها بأثواب الرضا
يضاهي ضبابها البياض أناقة
النجاح مدعاة استمرار
و الفشل مدعاة إصرار واستمرار
ابتسامة تعبر المعاني
لتستقر في أعلى ومنتصف القلب
تنبع من زمزم النقاء
والعبير كانت زهوره الروح
وعلى مقل الشمس
كانت تتأرجح نظرات حلم
وأنفاس الوعد
وذاك النهار المدجج بالبساطة
المكبل
وعد مكبل بالانتظار
وساق تقودها خطوات إرادة
الدرب يمشي
إلى حيث الوعد
والوعد مفتاح القادم باب
وذاك السلسبيل شعر
تنظمه أفواه الماء
وذاك الخضار..
سلام.. حاكته الفصول
عيناك.. سلالم الخفقات
إلى الدرك الأعلى من اليقين
وهم جميعهم.. .فواصل
لا تنجب نقطة حمراء
في أخر سطر في صفحة التمني
والجمال بمداه تقوله
الأفواه
لا صدى يحكي الأحزان
لا وداً.. يشكي المكان
لا مدى.. يبكي الزمان
مدينة فاضلة تتوسط الحياة
بعد فقدان وعدة وداعات
تقطعت كل السطور
وتلاشت الكلمات
نضب قصيد العمق
في بيد الأيام
متسع لليابس.. يخترق الصميم
يحرق فيحترق

غدار يا زمن!

• ناديا إبراهيم

بين ليلة وضحاها، استباح نفر من الإرهابيين في المخيم، بيت الاستاذ (طحيمر) وفجروه بعبوة ناسفة، انتزعوا منه كل شيء من أثاث، وأسلاك كهربائية،وفراش، وغيرها، تطايرت النوافذ والأبواب، وغطى الدخان والغبار السماء، وغدت الأشجار في الحديقة أشباحاً تثير الرعب والأشجان، لكنها بقيت شامخة تنطق بهول الإرهاب.

لم يتجرأ أحد على الاقتراب من المكان، أو يسأل ماذا حدث؟، وبأي شريعة تنتهك الحرمات، كل ما في الأمر عرف الأستاذ أن اسمه كان مدرجاً في قائمة المصنفين بولائهم للدولة، ولاسيما حين تكرر ظهوره على التلفاز وظهرت قصائده، ومقالاته تظهر في الصحف المحلية تمجد الجيش وانتصاراته المشرفة في ميادين القتال.

ماتت زوجته وابنته (عمشه) تحت الأنقاض، ودفنتا بلا شاهدة وسط غابة من الورود والأعشاب المتطاولة، ولم يستطع مشاركة الأهالي بالوصول إلى المقبرة للمساهمة في الدفن بقي متوارياً عن الأنظار، واستقر به المقام في أحد مراكز الإيواء في العاصمة، بعدها استقال من عمله التدريسي حين ألم به ألم المصائب والحزن، وغدت نهاراته مجرد مجموعة أشباح من الرجال يرتدون الثياب الزرقاء وقد ماتت البسمة على وجوههم،وهم يوزعون الطعام، والإعانات على العائلات التي هجرها الإرهاب من مساكنها. ثلاثة أشهر متوالية، كان يجلس خلف أحد الجدران متوارياً عن الأنظار، ينام ويصحو وكلما يتكلم يكتم صوته أمام المحتشدين في المأوى، حتى لا يحرجه أحد من النزلاء ويسأله لماذا هو وحده في هذا المكان دون عائلته، وماذا حدث لهم، حتى تلاشى صوته في عمق كيانه وتآكل شيئاً فشيئاً بهاجس اسمه الفقد، يظل يحدق من النافذة، في الأفق البعيد، فلا يرى سوى وجه زوجته وابنته عمشه يقاسمه البراءة والطفولة، وهي تمد يدها مثل ورقة يابسة تناديه من خلال الزجاج (اشتقتلك يابا) يحاول ضمها إلى صدره، يشتم شعرها الخرنوبي الطويل لكنه لا يرى سوى الدخان يتصاعد أمامه من سماء العاصمة يوقد الألم والحنين.

كيف لمدرس مثله، وشاعر فقأ عيون المرتزقة بقصائده الوطنية أن يجلس عاجزاً ينتظر من يذلل له عقبات الزمن، ليستمر في معركته الإبداعية، ورسالته التربوية، ويبقى حبيس الذكريات وضع رأسه بين كفيه، وراح يسترجع وحش الموت الذي عصف ببيته، وأعطب حياته على مرأى من أهل الحي الذين تخاذلوا أمام مواجهة الظلم ونداء الأرواح الذبيحة التي روعها الخوف.

مر الصمت ثقيلاً على قلبه، فمن مثله نفي عن أرضه سبعون عاماً، لماذا يبقى في حاله من الأرق والقلق وفوق رأسه ترفرف روحان حبيبتان على قلبه، وهو الذي أدمن الغربة ولم يعد يؤمن يوماً بوضع الطيور في أقفاص مغلقة، لكم كتب وهاجم ممارسات المحتل بحق أهله في غزة، لا ! لن يبقى ولو دقيقة واحدة، فهو منذ سنوات تراوده فكرة السفر وقد عرف في مخيلته كأحلام العودة، لما لا يتصل بابن حيه وصديق عمره في الدراسة الأستاذ (عقبه) الذي ألح عليه أكثر من مرة باللحاق به إلى إحدى دول الخليج، ليعمل محاسباً في إحدى الشركات الاستثمارية، لكنه كان يجاوبه بالرفض فهو يحب مهنته ويخلص لها، وها هو الآن في أمس الحاجة إلى العمل، سيتصل به ربما يضحك له الحظ ولو مرة واحدة في الحياة.

ضغط بأصابع مرتعشة على رقمه في الجوال، وراح يستمع للفراغ في ردهة المأوى الفارغ تماماً من المتزاحمين على سلال الإعانات، فجاءه الصوت يمتد من البعيد يخترق المسافات ويطلق صراخ الشوق والمحبة، طفرت الدموع من عينيه فمسحها قبل أن يراه أحد فجأة وهو يبث لواعجه، قاسمه الأستاذ عقبه حزنه على العائلة والوطن الذي فتكت به أيدي العار والدم الملونة، ووعده أن يبذل قصارى جهده ليخرجه من عتمة الأيام.

وفي لحظات يأس جاءه الرد مسرعاً كالمطر المدرار وحنينالراوبي والسهول للغزلان، دفن ظلال الخيبة التي أرقته أشهر طوال وهو يجلس وحيداً في عزلته يقرأ الكتب والمجلات والجرائد اليومية التي استنفدت نظره، وتركته يخسر الكثير من أحلامه، طالما تمنى أن يستلهم من رؤاها وجمالها قصائد تتلمس زمن الحب وأوراق عشاقه.

تلك الليلة، اشرأب نظره يعانق شمس الغروب بلونها البرتقالي لتفتح للأحلام أبوابها المشرقة من جديد، لملم ثيابه ووضعها في كيس من القماش وراح يتمتم حزيناً مع نفسه:

(آه يا أم عمشه، لو كنت على قيد الحياة لرأيت كيف فتحت السماء لزوجك أبواب الحظ)، تحت خدر الفرح، استرخت أعصابه، أغلق كتاب الماضي، وأسلم جفنيه للنعاس، على أرض المطار الدولي استيقظ على صوت هدير الطائرة ودواليبها تكرج وتمزق جروح الماضي المعشش بين الضلوع، كان الوقت منتصف الليل لحظة استيقظ على صوت أنثى مذهلة الجمال تهنئ الركاب بسلامة وصولهم، منذ حطت قدماه على أرض غريبة استقل سيارة أجرة، قلب بيديه العنوان، وراح يسأل السائق متوجساً عن اسم تلك البلدة الواقعة على البحر، والتي حدثه صديقه عنها ووصفها بأنها جنة من جنات الدنيا، تمتم مع نفسه، ليته حضر لاستقباله، ولكنه اعتذر بسبب مشاغله في العمل، احتار ماذا يفعل؟ ماذا يقول للسائق وهو الغريب عن المنطقة؟، ظل يراقب الطريق راجف الشفتين كأنما جف حلقه فجأة، لكنه استطاع أن يكسر خيباته لحظة رأى لمحة من التعاطف في ملامحه الواجفة روى له تفاصيل تشرده عن الوطن ومرارة اللجوء منذ خروجه من فلسطين حتى تشرده عن وطنه الثاني سورية ولم يبخل عليه بأن يشرح له ليس بصفته مدرساً بل شاعراً هزت قصائده الرأي العام ولاسيما الأعداء والمرتزقة المتآمرين، كانت الغصة لا تفارق حنجرته وهو يتأمل من النافذة مكان غريب، لا الأشجار كما أشجار الوطن، ولا الدروب نفسها، تأخر الوقت وهو يدور معه في مكان لا يعرف منه بصيص ضوء يقوده نحو الأمان، أيعقل أن يقوده هذا الرجل الغامق البشرة إلى نهايات تعيسة، ولحظة أفهمه أنه رجل غريب من السودان، ويعمل كسائق أجرة منذ سنوات، وعرض عليه السكن معه ريثما يعثر على غرفة ويستأجرها، غمرته أمواج من الفرح، تمنى له أنه يهبط من السيارة ويحضن أشجار النخيل ذات الهيئات الخرافية شجرة شجرةالتي طالما شده جمال وروعة تنظيمها على طريق الطريق وهدوء المكان وبعده عن الضوضاء والأصوات المقلقة التي كانت تؤرق ليله (من قصف ورصاص وموت، وسط ضجيج الحرب).

مضت أيامه رتيبة وهو يعيش في مكان منعزل وسط غابة يسمع زقزقات عصافيرها وهسهسة أوراق أشجارها كل مساء، فيخرج تحت ظلال العتمة ليسجل مشاعره على الورق، التي كانت بمثابة العزاء الوحيد له، وعند الصباح ينطلق إلى مدرسته في طرف البلدة المحاطة بأشجار النخيل، وأمام زملائه في الفسحة بعد الدرس كانوا يتعاطفون مع محنته ويصفقون له، ويثنون على جمال سطوره.

ومما زاد من شعبيته، وتأجج أحلامه يوم تعرف على أمير المنطقة الذي مع الأيام ربطته به صداقة متينة وراح ينادمه الكأس والأركيلة الشامية المعسلة، ويسهر معه.

خلال ثلاث سنوات، أنارت قصائده شجون أهل القصر مما جعل زوجةالأمير تغرق في لجة البكاء والحزن، حين كان يلقي قصائده، ويدوس على أحزانه وآلامه، فكانت تلك الأيام والأشهر التي قضاها معها غنية بالاكتشاف لطاقاته وذاته وحبه للعمل والشعر والتحدي.

أوكلت إليه مهمة تدريس الأميرة الصغيرة (هيا) تلك الطفلة الثرثارة المغلفة بأطنان من الذهب الغارقة في حياة مجردة من المعنى، لكن وجهها الشبيه بوجه ابنته عمشة دفعه لأن يتدفق عليها بالمحبة والود ويحلم بالتقرب من سيدة القصر، التي لم تتوان عن مشاركته الأحاديث عن الحرب، والفرح والغربة التي تعيشها مع زوجها الأمير الذي يقضي سهراته مع الأصحاب وركوب الخيل، والغطس في البحر، كان الاستاذ (طحيمر) لحظة ينتهي من حصصه الدرسية، تضع له مبلغاً من المال فوق المنضدة لكن نفسه المتأزمة بالحرب وسواده ترفض بدواعي العزة والشموخ والكبرياء، كيف يشرح لها أنه رجل على باب الله أحبها منذ رآها لأول مرة ؟ وهي تقدم له القهوة العربية والضيافة الغامرة بيدها وأن الشقاء والفقر لهما أحب إليه من مفاخر الحياة ومباهجها أمام اهتمامها وودها.

في لحظة اشتعال روحه بالدفء والحنان، لم يلتفت نحو الخلف، تلبسه الوحي في ليلة قمراء فارتدى أسمال العشق وراح ينظم قصائده التي توقظ الأرواح من مستقرها بعد أن أقنعه الأصدقاء أن الحياة يجب أن تعاش بكل تفاصيلها، لكنه وهو يجلس في تلك السهرات على ضفة المساء حذروه من الوقوع في فخ الأوهام، فظل صامتاً وسط حالة من الهدوء الصادق، يهيم في الأقوال والأفعال ويرنو إلى عالم الخيال، ليصبو إلى الوصل المنال، فنداء القلب عنده كان أعلى من أصواتهم، وأكثر قناعة من تحذيراتهم، قال لهم من دون مواربة:

لن أسمح لأحد التدخل في حياتي، فأنتم لديكم كل شيء، وأنا وحيد، أكلني غول الوحدة، لا أستطيع عمل أي شيء سوى ملاحقة أخبار الوطن والشرود في ردهات الماضي.

تلك الليلة السوداء، سار إلى القصر، بخطوات مهزوزة مثل طفل مذعور، كان الجو يختنق بغيوم صيفية حارة والطيور اختفت أصواتها وهمساتها فوق قمم الأشجار، حمل في عبه أوراق قصائده التي ساهرها ليال عدة، وأغرقها بكل ما تهمس روحه المعذبة من أحلام ولهفة وحب، وعند المدخل الرئيس للقصر انطلقت نحوه كلاب بيضاء، عيونها، تلمع وسط الظلام أفلتت من مكان اختبائها، لحظة تسربت للأمير معلومات فحواها أن الاستاذ أطلق لروحه العنان، وأفاض لسيدته الرقيقة من ينابيع العشق أجمل الألوان، وصف بها جمالها وحنانها، وحماستها الدائمة لاستقباله في كل الأوقات، توسل الحراس، أن يبعدوا عنه هذه الكلاب الضالة، ويتركوه وشأنه، فهو رجل غريب عن المكان، ولم يقترف بحق أي إنسان ذنباً أو يؤذي ولو نملة ليحاسب بهذه الطريقة الوحشية، وهو مجرد رجل أخذت منه الحياة جمالها المشتهى، وهدّ الفقد روحه، وفي لحظات التوسل المتواترة، اشتدت جوقة العواء، فمزقت الكلاب ثيابه، وأوراق قصائده التي أغرقها بكل ما تهمس به روحه المعذّبة، مقتنعاً أن روضة الأحلام لهفة التحقق، حاول أن يلملمها ويضعهافي عبه،لكن لم يسعفه الوقت فسقط على الأرض فاقداً الإحساس والقوة، زاغت عيناه، انزلقت قدماه، قبض عليه متلبساً، رُحّل فجراً على طائرة خليجية حطت على أرض مطار بيروت ونقل جثة هامدة إلى أرض الوطن بعد أن توقف قلبه عن الخفقانلحظة هبوطها.

خيانة

• هالا مرعي

في لحظة ما كان يهيأ للسامع أن من يتكلم ليس من جماد، وأن ما يدور في بيت السيد راضي، وزوجته هنية ليس إلاّ تسجيل قام به أحدهم كي يفضح السيد راضي أمام زوجته، والآخرين.

افتتح الباب الخشبي الكبير الحديث بوصفه الأكثر بؤساً، وقال بنبرة حزينة :

- أشعر بالسأم من جراء صفعهم لي طوال الوقت، ولآلاف المرّات يومياً، فهم يتناوبون على جلدي منذ الصباح الباكر، الخادمة، فالبواب حارسي، فالسيد، والسيدة، والأولاد. أحياناً يركلونني بأقدامهم، وكأنّني طابة.

كنت أسترق السمع هذا الصباح إلى السيد، وهو خارج حين اقترح على زوجته تغيير جلدي، من الخشب إلى الحديد، وقاطعها بحزم حين قالت إنّها تحبني، بأن الحديد أكثر أماناً.

اختنق الباب ببعض العبرات،ثم صمت عن الكلام كالقفل.

كانت النافذة تستمع لشكواه باهتمام، وتأثرت لحاله، فاستلمت هي دفة الحديث، وقالت :

لكل امرئ من اسمه نصيب، وأنا من موقعي أسترق النظر إلى الشارع، والمارّة، والحديقة.

في مواعيد محددة تركض السيدة الصغيرة بلهفة إليّ، فتجعلني أتنفس الهواء الطلق، وهي تطل مني كي ترى حبيبها، فهي عاشقة هذه الأيام . أستمع معها إلى كلام الحب الساحر، وأتمنى لوكان لي حبيب مثلها. كثيراً ما أسمع ضربات قلبها، وتنهيداتها. الجميل في الحب يا أعزائي أنّ العشاق يستبدلون حجارة الأطفال الأشقياء بالورود. اليوم رمى لها بوردة جورية حمراء، فتلطخ جسدي بدم الجوري، أمّا البارحة، فقد كان يحمل لها عقداً من الياسمين الشامي الأبيض .

تململت الستارة، وبرّقة حريرية كملمس جسدها أقحمت نفسها في الحديث، وقالت شاكية : أنا مهملة أغلب الوقت، وأحياناً ينسون وجودي تماماً. إنّي أجد أهل هذا البيت بلا رأفة، فهم لا يتركوني أغفو حتى ساعة متأخرة من الصباح إذ تسارع الخادمة في كل صباح برفع ثوبي بلا حياء كي يدخل الضوء، أو تجمعني على بعضي. أنا لا أشعر بالهدوء إلاّ حين يسافرون.

كان البلاط ينتظر، فهو أقل مقاماً من المتحدثين إلى الآن، فأصدر آهات عميقة، وتنّهد بحسرة، وقال باستياء شديد:

-إنهم قوم بلا قلب، أو رحمة، يدوسونني باستمرار، وأولهم خادمتهم اللعينة التي تريق فوق جسدي المنظفات القوية الحارقة، مع الفرك، والدعك، والتلميع....آه.. آه أنا مهترئ تماماً هذه الليلة التي صادفت ذكرى زواج السيدين العشرين، من الخبط، والدبك، والرقص، إنّها ذكرى شقائي.

فجأة سمعوا صوت باب غرفة نوم السيدين يفتح، ويخرج منه السيد مرتدياً الروب دي شامبر. مشى بخطوات بطيئة على رؤوس أصابعه، وسلك الممر المؤدي إلى الصالون، ثم أشعل ضوء "لمبادير" خافت، ووضع نظارتيه، وجلس على مكتبه. أخرج رسالة غرامية من عشيقته، وراح يقرأ بسرور.

التزم الجميع الصمت خشية أن يشعر بهم يحدقون به، وحده الدرج كان يتلصص على سيد المنزل الذي كان مستغرقاً في القراءة، و هو يبتسم من وقت إلى آخر، ثم يرفع نظراته صوب الباب خشية أن يراه أحد. أعاد الرسالة إلى مكانها، وأقفل الدرج بالمفتاح، ولم يدرك أنّه محاط بجوقة من الجواسيس، وأولها الدرج، والمفتاح.

مَرُّوا مَعَ الرِّيحِ

• عبد السلام زريق

مَرُّوا معَ الرِّيحِ عَافوا الزَّهرَ وانْصَرفوا
فلا تَهادوا ولا شَمُّوا ولا اقْتَطفوا
عَتَادُهم فَيضُ أحلام ورابية
يَحلو بِأَجْفانها التَّغنيجُ والصَّلَفُ
سِلاحُهمْ مِنْ دَمِ الأيام رايتُه
فإن دَهاهمْ جُنونُ الرِّيحِ ما انْعَطفوا
لو قلتَ دونَكمُ الجوزاءُ ما نزلوا
أو دُونَكمْ بَحرُ هذا الموتِ ما وَقَفوا
أَعْيوا السَّرابَ وأعياهُمْ فما وَهَنُوا
فكفهم مِنْ حَميم الشَّمسِ تَغْترفُ
غناؤهمْ لمْ يغادرْ خافقي وَيَدي
صفرٌ ورُوحي مِنَ الإطراب تَرتجفُ
غَنُّوا وما زالت الأَصداءُ تُرْجِعُني
عمراً تَنَاهَبُهُ الأقدارُ والصُّدفُ
راحوا وأذكرُهمْ ما مرَّ بي غَرِدٌ
يَشدو أقولُ بذا غَنّوا وذا عَزفوا
وكمْ تَلاحَوا وكمْ باتوا على إحَنٍ
مِنَ القَصيدِ إذَا في شَدْوِه اخْتَلفوا
أُلاكَ قَومي قُطوفُ المجدِ حليتُهُم
ما هَمَّهُمْ كمْ بِغالي مَهرِها نَزَفوا
مرَّ الزمانُ وأصداءُ الهوى وقفتْ
وغادرَ الرَّكبُ إنّي دونَهمْ أقفُ
هذا أنا فيضُ أحلامٍ مُؤَجَّلة
يدُ المَقادير خَطَّتْ أينَ تَنْصرفُ
حَيْرى على شَفةِ الأيامِ أغنيَتي
مَقرورةٌ في هَجيرِ البوحِ تَرتجفُ
عارٍ وحُجَّةُ هذا العُمْرِ دامغةٌ
سيَّانِ صوتُ جُحودي أو سأَعْترفُ
لمْ أُستَشرْ لمْ أُخيَّرْ كنتُ جَلْمَدَةً
ولا يشاءُ الهوى أيَّان تنجرفُ
إنْ عَادَني الصّمتُ صَمتي فيكَ يقتلني
تَجلياتي لِطولِ الصّمتِ تَرْتَعفُ
لمْ تَتْركي لِجُنونِ العقلِ منطلقاً
أو تَتركي لِخيالِ الشعرِ ما يَصِفُ
وتلكَ ناعورةٌ والنجمُ ساهرُها
فأنزلوها بما ألقاهُ تعترفُ
مِنَ العَجيبِ بأنَّ الموتَ مرَّ هنا
لألفِ عامٍ وإنّي ها هُنا أقفُ

لوحتان

• صالح محمود سلمان

لَوحَـة أولى

في صَدرِ اللَّوحةِ كانَ، إذا لم
أُخطئْ في الرُّؤيةِ،
قِنديل
يَتكلَّمُ عن أحداثٍ وَقعَتْ
لم يُخرِجْها أَحَـدٌ من قاعِ البئرِ
ومازالت تَتحدَّثُ عنها
صَفحاتُ الأيّامْ
لم تَقدرْ كُلُّ دلاءِ السيّارةِ أن تُنقذَها،
لكنَّ صَداها يَزدادُ صُراخاً
في كُلِّ مَراعي الأنعامْ
لم تَكُنِ اللَّوحةُ خاليَةً من أشجارٍ
ووُجوهٍ تَتَدلّى منها
حَمراءَ وصَفراءَ
تُحاورُهـا النِّسماتُ فتهتزُّ سَواداً
في الأنحاءْ
أوصاها الرسّامُ بألاّ تَخضَرَّ،
لكيلا تَتجمَّعَ فيها أسرابُ الطَّيرِ
وأحلامُ الشُّعَراءْ
في اللَّوحةِ زيْتٌ
يَتَسرَّبُ من عينيْنِ هُناكَ
فيَشحُبُ في الرُّكنِ الخَلفيِّ طَريقٌ
تَعبُرُهُ قافلةٌ فتَضيعْ
مـازالَ الرسّـامُ يُحـاولُ أن يُرجعَها
لَكنَّ الريشةَ لا تَنْصاعُ البَتَّةَ،
يَزجُرُها بالفضِّيِّ فتأبى،
بالذهبيِّ فتأبى،
أتراها عَلِمَتْ
أنَّ القافلةَ اختارَت أن تَمشي
في المَجهولْ؟!
ألهذا رَسَمَتْ
، في الرُّكنِ المَخفيِّ من اللَّوحةِ،
أشلاءَ قَطيعْ؟!

لَوحَـة

كم كان طويلاً
وطويلاً
ذيّاكَ الليـلْ!!
كم كان شَحيحاً
ونَحيـلاً، رَغـمَ جُنونِ العَتْمةِ
في أنحاءِ المَشْهَدِ،
ذيّاكَ القَنديلْ!!
أصداءُ دُعاءٍ تَتهاوى
تَرجيعُ حَنينٍ يَتكسَّرُ
أشباحُ ذئابٍ تَتَسلَّلُ نحو بُيوتٍ
ساهمةِ الجُدران
رياحٌ صاخِبةٌ تَتلوَّى
فتَئِنُّ الأبوابُ
وتَرتَجِفُ الأشجارُ كَساها العُرْيُ
غُـرابٌ يَتَفقَّـدُ أعشاشَ
عَصافيرِ البُستانِ
وأحلامَ شَجَيْرات الزيتونْ
إيمـاءٌ من أعمـاقِ الجُـرْحِ يَصيحُ:
تَوَقَّـفْ عن سَرْدِ تَفاصيلِ اللَّوحةِ
(في هذي السَّاعةِ من شَهواتِ الليلْ)
فالقلبُ عَليلْ
لا تَمْشِ رُوَيْـداً في هذا الوقتِ المُتثائبِ
قدَ يُدركُكَ النَّومُ
كذاكَ المُنتظرِ شروقاً
في جَنباتِ الكهفِ وَحيداً
إلاّ
من حَمأ مَسْنُونْ
كم كانَ رَشيقاً ذاكَ الفعْلُ!
قرأناهُ قديماً في كُتُبِ التاريخِ
يُضيءُ
يُعِدُ العُدَّةَ لليومِ التَّالي
ويُجيدُ التَّصويبَ إذا ما اعتلَّ القَولُ
ويَبعثُ عَنقاءَ الخِصْبِ إذا ما النارُ اشتعلَت،
يتأَبَّى أن يأسرَه الماضي
فالمُستقبَلُ وِجهَتُهُ
منذُ بَرَتْـهُ اللغةُ الأُولى
يَدعوهُ فيأتي مُبتهجاً
لكنَّ حُروفَ الجزْمِ تَتالتْ
من كُلِّ نواحي الإسهابِ
وكلِّ فنونِ الأحكامِ
شعاراتٍ كاملةِ الأوصافِ
عيوناً حمراءَ
وُجوهاً صفراءَ
وأوْسِمَةً تَتراكمُ فوقَ صُدورِ العَدائينَ إلى حَلَباتِ التَّبْجيلِ
قَد يَسألُ واحدُنا عنهُ الآنَ
فيأتيهِ جَوابٌ راشَتْهُ الحِكمةُ
في كُلِّ عُصورِ التَّحكيمِ
وإقصاءِ النَّابي عمّا شَرَّعَهُ
الفقْهُ اللُّغويُّ المُتماهي
في فقْـهِ التَّعليـلْ
كَم كانَ
، ومازالَ طويلاً،
وطويلاً
ذيّاكَ الليلُ!!
وكم مازالَ شَحيحاً
، رَغْمَ جُنونِ الفتنـةِ
في هذا الكَونِ / اللَّوحةِ،
ذيّاكَ القنديلْ!!

سروج على ظهور الخيل

•محمد خالد الخضر

قمم وأشجار ..
وكرم طيب .
وهناك عير في الطريق ..
وثعلب .
وعلى يمين التل ..
تسرح ماعز .
وأمامها ضبع ..
وكلب يلعب .
جاؤوا على ذكر الوليمة كلهم.
وعلى انتهاء الأكل ..
فرق شملهم
قالوا : اتفقنا والعرائش تسلب .
لا تعتبي يا أرض ..
نحن جماعة
لا نلتقي
إلا لأجل بطوننا وجيوبنا وفروجنا .
حين العدو يخيفنا ..
نتمذهب .
وإذا التقينا ..
سوف نأكل بعضنا
وكأننا حول المنابر ..
مقلب .
حين الخيول تشد كل سروجها
نمضي إلى مقهى المدينة ..
مرهقين ونشرب .
قالت خديجة :
اطمئنوا
إنه صوت الحليف ..
فكيف أحذر يا خديجة ..
لا حليف سوى دمائك ..
عندما تنساب حول الشوح ..
مشرقة السنا
والبحر والصحراء حولك ..
والقضية حين نخلك تعتب .
في أول الحرب اللعينة ..
جاء شالوم الزنيم ..
إلى المضارب ..
كي يفك رموز مشكلة العروبة ..
في الجديد ويعرب .
ووراء أصحاب التفاوض أزرق .
مستفرغ ومكشر عن نابه
والسـيـدات أتـين يحملن الكؤوس ..
وكان حرص الحاضرين بلهفة
أن يأخذوا صورا ..
لترسل في المساء إلى البلاد ..
فيفرح الأهلون ..
والبلد الجريحة تعجب .
قالوا : تفضل .. يامحمد ..
قلت : عذرا ..
عزتي تتكهرب .
متفجر حين الكرامة تسلب .
عادوا كما كانوا هناك ..
يصفقون ويرفعون أكفهم
بالأصبعين ..
على هبوط ثلاثة .
في عالم كسر الحدود ..
موحدا في حلمه ونزوعه ..
شبق النهاية ..
أمتي وضعت على عوراتها
" لايكاتها "
شالوم مشط شعره
حتى تطاول ساخرا منا ..
وفي مقهى الحكاية ..
في زقاقات المدينة .
اتفقنا والقوافل تذهب .
يعلو بمؤتمر فحيح صراخنا
وإذا دعينا ..
في المعارك نهرب .
دبيكة بعد التحرر ..
لايضاهينا المجون ولا الخنى .
مستغرب !!
كيف الذين تخاذلوا ..
عادوا جميعا ..
يبدأون برقصة
لاشيء يمنعهم ..
ولا أحد يسائلهم ..
لماذا نخوتي تستغرب ؟!
الأزرق الممتد من عوراتنا يتقرب .
حبلت مواقفنا بنطفة أزرق .
وعلى بكاءات الأزقة ننجب .
من هؤلاء ؟..
وكيف جاء مقوس ..
ورق النصيب ..
من الكرامة يسحب .
حرقوا منازلنا ..
وقالوا : ثورة
حرقوا كرامتنا ..
وقالوا : ثورة
الآن جـاؤوا .. والمـواقـف حاصرتنا في دمي .
هذا حليفك يادمي يتكسب .
حتى إذا ضربت علينا .
طائرات عدونا ..
فالمواقف تحسب .
خذ من يدي تاريخ أمتنا المعاصر كله
كبراؤنا
عظماؤنا
أشرافنا
ثوراتنا .. حلفاؤنا .. أمطارنا
وجمعها تتذبب .
الطائرات تحوم حول رؤوسنا
وذكورنا
والحمد لله العظيم ..
لأي غانية ..
يشط لعابه ..
ويشبب .

أحبائي

• رجب كامل عثمان

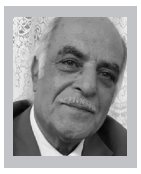

لماذا تزهرُ الدنيا
وتخضر المواويل
لماذا تورق الأغصان..
والأحزان
في وطني
وما من عاشق في الكون..
تعنيه التفاصيل
لماذا كل هذا الصمت
هل ماتت ضمائركم
أنا يا شام..
لم أسرف بأحلامي
ولم أغـرق بتأويلي وأوهامي
ولكني- أرى أني..
بدأت الآن.
أدرك سر آلامي
وعمق الجرح في صدري
وقد أدركت منذ البدء
أنك.. جرحي الدامي
فبعدك أنت
لا عشق ولا عتق ولا طهر
ولا عطر ولا زهر
ولا نثر ولا شعر
لأنك زينة الدنيا
ومنك سيولد الفجر..
والأحلام ما عادت
هي الأحلام
أناشدكم- وأسألكم
بكل مقدس في الكون..
أسألكم
لماذا كل هذا الصمت
هل ماتت ضمائركم
وما عادت لتسعفكم
لماذا صُـمّـت الآذان والأذهان
على وقع ارتعاش الروح والوجدان
لماذا يقتل الإنسان في وطني
لما يقتل الإنسان؟
لما أيها العرب
ألسنا منكم كنا
ومـا زلنـا لـذات القوم ننتسب
أجيبوني
لماذا أيها العرب
وهل أنتم- كما قلتم
دعاة محبة كنتم
وما زلتم
أشقاء لأهل الشام
أم الأيام..
ما عادت هي الأيام

فتاة الكرسيّ المتحرّك «٢»

• سوناتا أوس أسعد

بعدَ دقائقَ معدودة من التّأمّل الحالم فتحت "شام" نافذتيّ عينيها فانبثقَ منهما الحسن وشعّت ضفائر الحيويّة مسترسلةً بكلّ الاتجاهات، كأنّها حوريّة من حوْر الأساطير، كلّ من عرفها عن قرب أو لمحها لمرّة واحدة سيرى صفاء قلبها المحبّ معكوساً في مرآة عينيها الزّرقاوتين الصّافيتين اللّتين تفيضان بالعافية والذّكاء، أمازونة من فارسات الزّمن القديم، المحاربات اللاّئي جاء ذكرهنّ في التّاريخ. لاشيء يقف في طريق تصميمها نحو تحقيق أهدافها مهما بدت صعبة المنال، ولكن ما الذي كانت تستطيع فعله أكثر من ذلك تجاه الكوارث الهائلة التي تعرّض لها وطنها وانعكست مآسيها على كامل حياة أبنائه. مع ذلك هي تثق تماماً بأنّ كلّ ما حدث يمكن إعادة بنائه من جديد بهمّة أبناء سورية وأجيالها الصّاعدة. أخذت تتلاعب بخصلات شعرها ذهبيّ اللّون، متباهيةً بجماله، بينما تنافس أصدقاؤها وصديقاتها في ابتكار أساليب متجدّدة لإسعادها والتّرويح عنها بأفكارهم الطريفة وتعليقاتهم النّبيهة.

قالت "لانا": انظروا معي، ألا تشبه أميرتنا العزيزة "شام" شخصية (ريبّانزل) أميرة برامج الأطفال؟ ثمّ وضعت يدها على ذقنها بهيئة المفكّر بريئة الملامح. ضحك "علاء" بسخرية: هاه هاه أظنّك أخطأت التّشبيه يا "لانا"، أنا أرى بأنّها تتقمّص شخصيّة محبوبة (سبايدرمان) في المسلسل الشّهير الذي نعرفه جميعاً، أليس كذلك أيّها الأصدقاء؟ وتطلّع نحوهم بحثاً عن تأييد، لكن دون جدوى. فتظاهر بأنّه يمعن التّفكير من جديد في احتمال آخر. في هذه اللّحظة انفتنت ضحكة عالية، الموقف، ومنعت نشوب مشكلة طفيفة بين "لانا وعلاء"، فالتفت الجميع إلى مصدرها ليروا "شام" غارقة في موجة من الضّحك تكاد لا تنتهي، حتى يظنّ من يراها أنّها خرجتْ عن حدود اللّياقة، لتقول (كمن نجح في خداع أحد ما): لا، أيّها الأصدقاء، أنا لم أفكّر بتقليد أحد، ثمّ أضافت وهي ترفع كتفيها: ببساطة، أنا أعيش شخصيّتي الطّبيعيّة، والآن، ما رأيكم أن نجرّب لعبة إيحائيّة أخرى، أقصدُ أن يغمض أحدنا عينيه ويحلم بشيء معيّن، وعلى الآخرين استنتاج هذا الشيء، ثمّ يُطلب منه أن يمثّل ما حلم به؟ وافق الجميع على اقتراحها. لكن مجيء "جورج" المفاجئ كعادته في اقتحام الأجواء، أجّل تنفيذ الموضوع للحظات وكانت أذنه قد التقطتْ فكرة اللّعبة المقترحة، فهتف بهم: ألم تسأموا من هذه اللّعبة السّخيفة بعد؟ وأضاف (بلهجة غير مكترثة): هذه اللّعبة تليق بالأطفال يا زملاء، ونحن في الصّفّ التّاسع، أي أنّنا لم نعد أطفالاً، أتفهمونني؟

لاحظ الجميع عدا "شام" أنّ "سارة" التي تقف خلفها، مواجهة للأصدقاء تقوم بحركات إيمائيّة بوجهها ويديها محاولة أن تُحدث تأثيراً معيّناً على "جورج" كإشارة تحذيريّة له بأن يصمت. تساءلت عيناه بحيرة عن سبب التّحذير، ليلاحظ أنّ هناك فتاة جميلة بملامح أميرة تجلس على كرسيٍّ متحرّك لذوي الاحتياجات الخاصّة، وقد التفّ حولها الأصدقاء، حينها فقط عرف سببَ انشغال الجميع بها، وتأسّف لتسرّعه في الكلام؟ استغلّت "سارة" حالة الدّهشة وسحبته جانباً لتعطيه نبذة ملخّصة عن "شام" زميلتهم الجديدة في الصّفّ، وأنّ هذا اليوم هو أوّل يوم لها في مدرستهم، فهي تسكن في الحيّ نفسه قريباً من منزلها، وقد أُرغم أهلها على ترك منطقتهم قسراً، مثل الكثيرين من أبناء الوطن، بسبب ظروف الحرب واستيلاء الفصائل الإرهابيّة على بلدتهم الشّماليّة وطردهم لسكانها، كما أنّ المسكينة فقدتْ أختها التوءم خلال الأحداث، ما سبّب لها جرحاً نفسيّاً لا يندمل،أقعدها كما ترى على كرسيٍّ متحرك. نطقتْ "سارة" جملتها الأخيرة وكادت تشهق بدموعها، مترقّبة ردّة فعل "جورج" الذي سرعان ما ظهر التّأثر جليّاً على ملامح وجهه، واندفع مسرعاً للاعتذار من "شام" (التي كانت تتهيّأ لتمثيل فكرتها أمام الأصدقاء وكأنّ شيئاً لم يكن) فقال لها مقاطعاً، من دون مقدّمات وكأنّه يعرفها منذ مدّة طويلة: أرجوكِ أن تعيدي تمثيل ما تخيّلت أمامهم منذ قليل، فأنا لم أكن موجوداً. ابتسمتْ فتاة الكرسيّ المتحرّك ابتسامة مشرقة لهذا الوافد الجديد وأجابتْ: بكلّ سرور، لكن ما رأيك أن أتعرّف إلى اسمك أولاً كبقيّة الأصدقاء والصّديقات؟ أنا "شام" فتاة مهجّرة من منطقة الشّمال، لي الشّرف أن أكون في مدرستكم التي سمعتُ عنها الكثير من زميلتي "سارة" ولن نعيد تكرار اللّعبة السّخيفة كما وصفتها، بل سنبتكر فكرةً أخرى يا صديقي، ما رأيك؟ ثمّ مدّت يدها إليه مصافحةً، فصافحها بخجل وقد علت وجنتيه حمرة خفيفة أكسبتْ وجهه الطّفولي ملامح محبّبة، قائلاً: أهلاً وسهلاً بزميلتنا الجديدة، أعتذر بشدّة لتسرّعي بالكلام، أنا "جورج" من أصدقاء "الشّلّة" بل قائدها الذّكي المتواضع والأخلاقي جدّاً. ضحك الجميع لدعابته في امتداح نفسه، وقد غدا الجوّ أكثر مرحاً. بدأت "شام" تمثّل هذه المرّة من دون إغماض عينيها، حالة إيحائيّة أخرى، رافعةً يدها اليسرى كمن يمسك بشيء رقيق يمتدّ ما بين ذقنها وكتفها، وتلتفّ حوله أصابعها بشكل متدرّج، وامتدّت يدها اليمنى بانسيابيّة ورقّة إلى أقصاها، و كأنّها تحمل شيئاً خفيفاً، تحرّكه بنعومة وانتظام ذهاباً وإياباً على الشّيء الرّقيق الذي تسنده بذقنها وكتفها، لتغرق في انسجام عجيب مع تخيلاتها، غائبة عمّا حولها من كثرة الانفعال، وبدأ جذعها بالتّمايل على صدى أنغام لا أحد يسمعها غيرها. لم تستيقظ "شام" من انفعالها إلاّ على حركة "سارة" وهيَ تحاول استرجاعها بهدوء إلى أرض الواقع، قائلة لها بكثير من المودّة: قلنا لكِ مثلي المشهد، لا أن تغرقي فيه وتتركينا هنا وحدنا. ضحكت "شام" من كلّ قلبها، تاركة لأصدقائها حريّة التّخمين. هتفت "سارة" بانفعال محاولة أن تبدو مختلفةً برأيها عن توقّعات الآخرين: بسيطة، أظنّ أنّ ما كنت تتخيّلين إمساكه بيدك اليُسرى هو صندوق خشبي صغير مثقوب في منتصفه، كانوا يسمّونه قديماً صندوق العجائب،أو صندوق الدّنيا، وقبل أن تمضي في استرسالها، قاطعها "علاء" بضحكة ساخرة: ولماذا هو صندوق خشبي تحديداً، ومثقوب في المنتصف؟!! ألا يمكنك وضعُ الثّقب بأعلاه مثلاً؟.

أجابتْ "سارة" وملامح الاستياء بادية على وجهها من سخريته: أرجو أن تدعني أكمل كلامي بلا تعليقات سخيفة يا "علاء" وتابعتْ غير مكترثة بوجهه العابس، مشيرة إلى يد "شام" الأخرى بالقول: وفي يدك اليمنى تخيّلت عصا سحريّة أو ريشة طويلة رقيقة تحاولين بها تحريض عصفور الكناري الصّغير الموجود في الثّقب على الغناء. وهذا ما جعلك تغيبين عنّا وتتمايلين مع أنغامه الشّجيّة. تجاهلتْ "سارة" صوت الضّحك المكتوم من قبل "علاء" وسألتْ "شام" ما رأيك بتخميني؟ أعجبتْ "شام" بما قالته "سارة" التي فاجأتها بتحليق مخيّلتها في البعيد هي الأخرى. ولكنّ الضّحك انفلت من الأفواه من دون قدرة على ضبطه. نظرت "سارة" إليهم باستغراب وهم يتفوّهون بكلمات غير مفهومة من خلال ضحكاتهم غير السموّغة بالنسبة إليها، ووقفت بجانب "شام" المحرجة من تصرّف الأصدقاء منتظرة أن تهدأ عاصفة الضّحك الجماعي لتسألها بهدوء،إن كانت قد تكلّمت بشيء يستدعي السّخرية إلى هذا الحدّ؟ حاولتْ "شام" أن تخفّف من حدّة الموقف شارحةً، بالقول: هم لا يسخرون منك يا عزيزتي، هذا يحدث كثيراً بين الأصدقاء والمجموعات المتقاربة من بعضها، لقد قرّأت شيئاً بهذا الخصوص يوماً ما، ولا تُعرف أسباب واضحة له، فهو ينتقل بالعدوى من محرّض بسيط، همْ يعبّرون بطريقتهم عن فرحتهم وإعجابهم بمخيّلتك الواسعة، التي أعتقد أنّها ستفيدك في المستقبل في الكتابة الأدبيّة لو شئت. فأنت قد أتيت بفكرة رائعة تتقاطع مع ما كنت أتخيّله تماماً. فرحتْ "سارة" بامتداح "شام" لمخيّلتها وعانقتها شاكرة بقولها: أسلوب كلامك مدهش ومقنع يا "شام" الحمد لله أنّك أتيت إلى صفّنا، أنا سعيدة بصداقتك حقّاً.

أوضحتْ "شام" للجميع أنّ ما كانت تمثله يشبه تخيّلات "سارة" إلى حدّ بعيد. فهي كانت تعزف على آلتها المفضّلة الفيولا (viola) مقطوعة خالدة للموسيقار العالمي "بيتهوفن" تدعى "سوناتا ضوء القمر" حينئذ فغر الأصدقاء أفواههم دهشة، وكان أكثرهم تأثراً "جورج" الذي ظلّ يصفّق لها طويلاً، وهي تشرح لهم بإسهاب عن مزايا هذه الآلة السّاحرة التي كانت تسيطر على القلوب بألحانها، وهي تشبه "القيثارة" في الأساطير الخياليّة التي كان السلاطين والأمراء يستدعون عازفيها إلى قصورهم للتّرويح عن أحزانهم وهمومهم، وإعادة الحيويّة والنّشاط لأبنائهم المدلّلين. لقد كانت الموسيقا علاجاً قديماً للمرضى النّفسيّين أيها الأصدقاء، تساعدهم في الشّفاء من هلوساتهم وتعبهم الذّهني، كما كانت القيثارة آلة العشّاق المفضّلة، يعزفون على أوتارها أشجى الألحان تحت نوافذ حبيباتهم المسجونات في القصور البلوريّة كما تروي القصص، مؤكّدين لهنّ أنّهم على العهد باقون. وهنا هتف "علاء" وقد ظهر عليه الخجل لما بدر منه سابقاً: معلوماتك يا "شام" مفيدة جدّاً وتدلّ على قراءة ومثابرة، فهل تتابعين دروساً في الموسيقا ؟ نحن في مدرستنا لم يعلّمونا شيئاً يذكر حالياً ولا سابقاً، فحصّة الموسيقا عندنا فراغ دائم، تصوّري !. وهنا استغلّت "سارة" الفرصة لتعيد اعتبارها لنفسها أمام الأصدقاء، فقالتْ مستهزئةً أحسنت "علاء" واللّه كأنّك تفكّر أحياناً !. فضحك الجميع إلاّ "علاء".

بعدَ انتهاء يومهم الدراسيّ الذي قضوا بعضاً منه بالتعرّف إلى الزميلة الجديدة الموهوبة، مستغلين حصّتي الفراغ بمادّة الاجتماعيّات الجافّة لكثرة ما تتضمّنه من حشو ومعلومات لا فائدة منها.

انطلق الجميع إلى بيوتهم وهم في غاية الإعجاب بشخصيّتها. رافقتها "سارة" إلى منزلها ولم تتركها حتى اطمأنّت عليها تماماً. ما إن دخلت "شام" البيت حتى خيّمت عليها ظلالُ غربة ووحشة مفاجئة، وأحسّتْ بتعب ووهن غريبين. لقد عاد إليها الشّعور النّفسيّ القديم ذاتهُ بالعزلة مجدّداً، شعورٌ كان يطاردها بلا رحمة ويمنعها من الراحة والسّكينة، جلست مع والدها شاردة الذّهن، كان أوّل سؤال تسأله إيّاه، وكأنّها تكلّمه من عالم بعيد، أبي، أين أمي؟ أجابها قائلاً: اطمئني يا عزيزتي، أمّك لم تعد بعد من عملها الوظيفي، هل أساعدك بشيء يا ابنتي؟. ثم تابع مستفسراً: كيف أمضيت يومك الأوّل في المدرسة الجديدة؟ اقتصر كلامها على جواب سريع مختصر: كان يوماً معقولاً يا أبي، وصمتتْ من جديد. لكنّ الحاح والدها ـ الذيّ رأى بمرآة وجهها شارد الملامح صراعاً نفسيّاً حادّاً لم تستطع إخفاءه ـ جعلها تروي له ما مرّت به من أحداث في يومها الدراسي الأوّل، وتخبره عن أصدقائها الجدد، محاولة أن تبدو مرحةً قدر الإمكان. فهي تعرف حرصه الشديد عليها ورغبته العارمة بأن تكون وحيدته سعيدة، وهي في الحقيقة، تحبّ أن تكون سعيدة وناجحة ومتفوّقة، ومستقلة الشّخصيّة في حياتها، خصوصاً بعد المأساة التي أصابتها مع عائلتها وعائلات كثيرة من أبناء بلدها الحبيب الذي مزّقته الحرب على مدى سنوات سبع.

كان والدها يربّتُ على كتفها مبتسماً وهي تروي مشاهداتها اليوميّة، واثقاً بأنّها قادرة على تجاوز متاعبها وإعاقتها بالمزيد من التّصميم والنجاح. اعتذرت "شام" من والدها وانطلقت على كرسيها المتحرّك لتجلس أمام نافذة غرفتها، غارقةً من جديد في عالمها الخاصّ، متأمّلة في كلّ شيء، حتى لو كان تفصيلاً صغيراً مهما بدا تافهاً وغير مهمّ بنظر الآخرين! تأمّلت الأطفال الصّغار الذين يمرحون مع أخوتهم الكبار في الحديقة التي يطلّ منزلها عليها وشعرتْ بالغصّة، ولكنّ النعاس غلبها، فاقتربت بكرسيها من السرير واستلقت مرهقة بكامل ثيابها عليه، لم يكن بمقدورها التّفكير بأيّ شيء في هذه اللحظة إلاّ النّوم، ثمّ النّوم، ثمّ لاشيء! وما أن أغمضتْ عينيها المتعبتين، حتّى غرقت في الحلم، لترى صورة مشوّشة لطفلتين توءمين تلعبان معاً في صالون منزلهم القديم، وهو المكان نفسه الذي كانت تلعب فيه مع أختها وهي صغيرة، وعند اقترابها منهما فوجئت بأنّها هي نفسها إحدى الصّغيرتين التي كانت تلعب مع أختها التوءم الذي تسبب فقدانها لها بأزمة نفسيّة شديدة أقعدتها ومنعتها من المشي. كانتا تلعبان ألعاباً طفوليّة جميلة ولا تتركان بعضهما إلاّ وقت النّوم، تغفوان وأذرعهما ملتفّة حول بعضهما حتّى الصباح، مع ابتسامة رضا ومحبّة تزيّن وجهيهما الصّغيرين.

مهلاً، لن أتأخّر، سأذهب حالاً للتفتيش عن أختي المفقودة وسأعيدها إلى البيت بالتّأكيد، الوقت يداهمني هكذا كانت تحدّث نفسها في الحلم، ولا ترغب بأن ينتهي نهاية غير سعيدة (فكّرت شام الحالمة قليلاً)، ثمّ ركضتْ باتجاه أختها بسرعة ممزوجة بالفرح، فما كان من الأخرى إلاّ أن سحبت «شام» الصّغيرة وأخفتها وراءها بهلع وقالت لـ«شام» الحالمة: من أنت؟! أجابتها «شام»: أنا أختك التوءم يا «سالي» ألم تعرفيني؟ تعالي معي، إنّنا نشتاق إليك كثيراً أنا وأمّك وأبوك، أين اختفيت؟ بالتّأكيد أنّك كبرتِ مثلي وأصبحت بعمري فأنا الآن في الصفّ التاسع ،أرجوكِ تعالي، سأخبرك بكلّ ما حدث أثناء غيابك بعد انتهاء الحلم؛ أجابتها «سالي»: (وعلى وجهها تقطيبة عبوس طفوليّة): لا، أنت لست أختي، بل هذه الصّغيرة التي تلعب معي هي أختي، إنّها خائفة منك لذلك تختبئ خلفي كما ترين، أنت أكبر مني بكثير ولست توءمي، وأضافتْ: هل الأمر بحاجة إلى شرح، أليس واضحاً بالنسبة إليك؟! (ورمقت شام الحالمة بنظرة غاضبة) متأبعةً: لن ترينني مجدّداً يا «شام» الكبيرة، لأنّك تدّعين بأنّك أختي، فأنا لا أعرفك ولا أودّ ذلك أبداً لأنّ أهلي علّموني ألاّ أحدّث الغرباء، ثمّ ركضت ساحبةً «شام» الصّغيرة (المذهولة من هول ما حدث!) وهي تقول: كنت أمزح معك يا أختاه، لقد قمتُ بخداعك، (لكنّها لم تكن تدري أنّها بكلماتها القاسية تلك، قد جرحت «شام» الكبيرة) ثمّ سُمع صوت ضحك قويّ تبدّد بسرعة هائلة إلى أن اختفى تماماً، ليبدأ صوت آخر (مألوف كثيراً بالنسبة «لشام»): هدّئي من روعك يا صغيرتي، إنّه مجرّد كابوس مزعج، استيقظت «شام» مذعورة، وقد ابتلّ وجهها ومخدّتها بالدّموع والعرق، كانت تتنفّس بصعوبة وتحادث نفسها: (ترى لماذا يظلّ هذا الحلم الغريب يراودني؟! لقد سئمتُ من الكوابيس)، فتحت عينيها بتثاقل كبير، لتجد أمّها واقفة إلى جانب السرير وهي تمسح بيدها الحانية على وجهها وتبتسم بعذوبة، سائلة إيّاها أن تسرد لها ما رأته في الحلم بلا نقصان. ذكرت «شام» لها تفاصيل كلّ ما رأته والدموع تذرف غزيرة من مقلتيها، متوسّلةً لأمّها بأن تساعدها في التّفتيش عن أختها التوءم فقد اشتاقت إليها كثيراً.

قالت الأمّ: خفّفي عنك يا ابنتي، اللّعنة على هذه الحرب كم حمّلتنا من مآس، لقد خرّبتْ كلّ شيء جميل في حياتنا، لم ترحم البشر ولا الشجر ولا الحجر، لكنّنا لن نسمح لها بتدمير أرواحنا، ولن نبقى أسرى الماضي ننذب حظوظنا، سنواجه الحرب والخراب الرّهيب بالموسيقا وحبّ الحياة والإبداع، ثمّ قبّلتها بحنان بالغ على جبهتها(كثيراً ما كانت «شام» تمرُّ بكوابيس من هذا النوع لدرجة أنّ أهلها فكّروا بالاستعانة بطبيب نفسيّ لمعالجتها). كانت كلمات الأمّ الحنون فعلَ البلسم الشّافي لروح «شام» المجروحة، حفزتها على تجاوز حالتها السلبيّة، ودفعتها للمشاركة في مسابقة الأطفال الأدبيّة المعلن عنها في مجلّة أسامة التي تتابعها بشكل دوريٍّ منذ نعومة أظفارها، ولكونها تحبُّ كتابة الشّعر كثيراً، قرّرتْ المشاركة بقصيدة عنوانها «لوعة القمر» وكم لقيت فكرة مشاركتها في المسابقة استحسان رفاقها وأهلها وأساتذتها في المدرسة والمعهد الموسيقيّ الذي تتدرّب فيه، ما حفّزها أكثر على المزيد من الجدّ والتّصميم لتنفيذ فكرتها على أحسن وجه، فكانت كلّ يوم بعد عودتها إلى المنزل: تسارع بإنهاء واجباتها المدرسيّة، ثمّ تنهمك أغلبَ وقتها المتبقّي في صياغة أفكار وكتابة أشياء كانت قد التقطتها ودوّنتها في مفكّرتها من مشاهداتها الحياتيّة، مطلقة العنان لمخيّلتها لتصوغها وترتّبها بالشكل اللاّئق، فيمتزج الواقع بالخيال بأعلى درجاته! وما أن يدخل أحد من أهلها إلى غرفتها، حتّى تتظاهر بانهماكها الشّديد في وظائفها، أو بالنّوم كي لا تفشي سرّ مفاجأتها التي ترغب بتقديمها لهم في القريب، واثقة من أنّها ستستطيع انتزاع إعجاب اللّجان المقرّرة في هذا الشّأن. وبعد أن سلّمت قصيدتها إلى ديوان مديريّة ثقافة الطّفل في وزارة الثّقافة من خلال أصدقائها الذين تبرّعوا بإيصالها إلى هناك، كانت عطلة الرّبيع قد حلّتْ. وبينما هي تتصفّح حسابها على (الفيسبوك) خطر لها أن تخبر صديقها الأجنبي «جوني» الذي تعرّفت إليه من خلال فنّه، وأحسّت بصدق مشاعره تجاه مأساة وطنها ـ بأنّها ستشارك في هذه المسابقة وستفوز أيضاً لثقتها بإمكانيّاتها الأدبيّة، فعبّر لها «جوني» عن اعتزازه بتصميمها وقوّة إرادته، وهي بدورها شكرته لمساهمته في تحفيزها على تقوية لغتها الإنكليزية من خلال محادثتها الدائمة معه، وقد اعترف لها مؤخّراً بالغيرة منها لإحساسه بأنّها تنافسُهُ بتعدّد مواهبها. حذّرته مازحة بأن ينتبه إلى نفسه، لأنّها مُنافسةٌ قويّة لا ترضى بالمكانة الدُّنيا أبداً. فطلب منها أن ترسل إليه قصيدتها المشاركة لكي يترجمها إلى الإنكليزية حتى يفهم معانيها، وبالمقابل أبدت إعجابها بأغانيه وشهرته على مواقع التّواصل الاجتماعيّ.

استيقظت «شام» من محادثتها التحفيزيّة مع «جوني» على صوت أمّها وهي تقول: إنّهم مدعوّون لحضور عرض مسرحي في المركز الثّقافي في كفرسوسة، لم تفتْها ملاحظة بشائر الفرح المطلّة من عيون والديها، لكنّها لم تُتعبْ نفسها كثيراً في البحث عن السّبب، بل تركتْ للّحظات القادمة مهمّة توضيح ذلك!. وقد أكّد لها حدسُها بأنّ أهلها سيفاجئونها بشيء ما، وهي تتلهّف كثيراً لمعرفته.

صوت أمّها قطع سلسلة أفكارها من جديد: هل أنت جاهزة يا «شام»؟ فأجابتها: أجلْ يا أمّي، أنا جاهزة.

والذي أثار استغرابها وفضولها أكثر أنّ والدتها كانت مصرّة على اختيار ملابسها وتصفيف شعرها لأوّل مرّة، وهذا ما زاد من استغرابها كثيراً!!، وحين وصولهم إلى المركز الثّقافي، ذُهلتْ من رؤية تجمّع الناس الكبير هناك، والحضور الكثيف لمراسلي المحطّات التلفزيونيّة والصّحف فتساءلتْ في نفسها، أيعقل أنّ نتائج المسابقة قد صدرت وأنّهم ينتظرون الفائزين لإجراء الحوارات معهم، ومن هم الفائزون يا ترى؟. لم تطلْ مدّة تساؤلها كثيراً، فقد مدّ لها والدها طرف الخيط لتمسك به، حيث قال لها بفخر: اليوم يا «شام» نتائج المسابقة الأدبيّة وأنا أثقُ بكِ وبموهبتك يا ابنتي، ثقتي بنفسك دوماً، ثمّ ضحك قليلاً دون أن يوضّح قصده، أترى أنّ والديها قد أبلغا بالنتيجة مسبقاً وهما يخفيانها عنها لسبب ما؟ تساءلت «شام» ثانيةً بينها وبين نفسها!.

استُدعي المتسابقون إلى كواليس المسرح. أوصلتها والدتها إلى هناك، والفرح يكاد يقفزُ من عينيها، ثمّ ذهبتْ للجلوس إلى جانب والدها في الصّالة، التي تضمّ إلى جانب أهالي المتسابقين الآخرين، أصدقاءها، وأساتذتها الذين قدموا ليشجّعوا طالبتهم المتميّزة.

تعرّفت «شام» في الكواليس إلى أصدقاء مشاركين كُثُر؛ كان يبدو عليهم القلق والتّوتر كحالها، وبينما هي منهمكة في الحديث معهم، طنّ في أذنيها رنين اسمها يردّده (المايكروفون) بصوت موسيقيٍّ عال، لقد أذيعَ اسمها كأوّل اسم فائز بالجائزة الأولى للشعر، عن الفئة العمرية من «13، 17سنة» لم تسعْها الفرحة، قفزت بسهولة مدهشة، وبلا تفكير عن كرسيّها المتحرّك، ودلفتْ شامخةً إلى المسرح بسرعة، إلى حيّث الضّوء والفرح والحشود المنتظرة !. إلى منصّة التّكريم لاستلام الجائزة التّقديريّة، كادتْ تصرخ بأعلى صوتها: نعم أنا «شام» فتاة الكرسيّ المتحرك، أيّها الناس، أقف الآن على قدميّ بثقة وقوّة لأستلم الجائزة الشّعريّة الأولى على مستوى سورية، هل أنا في حلم أم حقيقة؟! لم تُصدّق لوهلة ما يحدث حولها حتّى علا التّصفيق حارّاً صاخباً ليتجاوز سقف المركز الثّقافي معانقاً عنان السّماء.

وبعد أن خيّم الهدوء من جديد على الصّالة، نظرتْ إلى والديها بفخر وحبّ عاليين، لم يصدّقا أوّل الأمر أعينهما! ابنتهم المقعدة تمشي بكامل الثّقة على قدميها، كانت دموع الفرحة تبلّل وجهيهما، وهي بدورها لم تعد تتمالك نفسها، تحت ثقل شعورها الضّاغط بفرحتها المضاعفة، لتنتزع (المايكروفون) من قاعدته ، وتدور كالمسوسة على المنصّة صارخةً بأعلى صوتها: ماما، بابا، يا إلهي، هاأنا أمشي من جديد !!!!!! وسأعود لممارسة كلّ نشاطاتي السّابقة.

قفزت إلى الصّالة، لم تكن تمشي بل تطير على الدرجات، حاملة شهادة فخرها بين يديها، الجميع بانتظارها، أصدقاء المدرسة، الأساتذة، الأهل، جمهور الصّالة، زملاء المعهد الموسيقي، وسائل الإعلام. لا تستطيع شرح فرحتها العارمة بالفوز، كان شعورها بالتّفوق والقدرة على الإنجاز لا يوصفان، حينها فقط، أدركتْ «شام» قيمة الوقت، وكم يهدر الناس أعمارهم في أشياء سخيفة هدّامة لا معنى لها! بينما لو وجّهوا طاقاتهم نحو البناء والخلق لحقّقوا المعجزات! شكراً لكِ أيّتها الحياة على كلّ شيء.

كانت تعلم أنّ عجزها السّابق سبّبته صدمة نفسيّة عاصفة خلختْ كيانها كلّه، نتيجة حزنها الشّديد على فقدان أختها التوءم في ظروف غامضة منذ سنوات، وهاهي الآن تتغلّب عليه وتقهره، رافضةً الاستكانة والاستسلام للظروف، كم تحسّ بنفسها قويّة الآن! نعم، قويّة جدّاً، إلى حدّ الفخر!.

عند عودتها إلى المدرسة بعد انتهاء عطلة الربيع، أقامت لها مدرستها حفل تكريم آخر مفتخرة بأنّها من طلّابها المتميّزين، كذلك عبّر زملاؤها عن اعتزازهم بها،وقدّموا لها الهدايا الرمزيّة عربون محبّة وإخلاص.

وأشار عليها بعض الأصدقاء أن تقوم بالتّخلص سريعاً من كرسيّها المتحرّك وأن تدفن وراءها كل ما من شأنه أن يذكّرها بالعجز والسلبيّة، هزّت رأسها شاكرة لهم طيب مشاعرهم ووقوفهم الصّادق إلى جانبها، مؤكدةً بأنّها ستهب الكرسي مجّاناً لفتاة صغيرة، جميلة جدّاً كانت قد شاهدتها يوماً ما في الحديقة مع أهلها وهي تعاني من (شلل الأطفال) وأدركتْ أنّ أهلها لا يملكون القدرة على شرائه، كانوا يحملونها بين أيديهم أثناء التّنقل من مكان إلى آخر (مسحت «شام» دمعة كبيرة كانت قد اتّخذت خدّها فراشاً مؤقّتاً قبل تدحرجها إلى الأرض) علّق علاء «وقد تخفّف من سخريته»: ما زلت كما أنت يا «شام» رائعة وشديدة الحساسيّة والإنسانيّة. فأجابته ممازحة: لا يليقُ بك سوى السّخرية يا صديقي، عدْ إلى طريقتك من فضلك، لكن تأكّد فقط من أنّك تستخدمها في الاتجاه الصّحيح. وأضافت «لانا»: كلّنا معك يا «شام» لقد تعلّمنا منك درساً رائعاً في حبّ الحياة، سيدفعنا لتحقيق المزيد من الطّموحات في المستقبل، أنت مثال يُحتذى بالقوّة والإرادة والتّصميم، وعلّق «جورج» بعبارة غريبة لا يدري كيف وجدت طريقها إلى فمه: كم أنت كريمة يا صديقتي! غصّ الجميع بضحكات مكتومة، ولكي يساعدوه في تخطّي الإحراج، اتّجهوا بأنظارهم صوب «سارة» التي اكتفتْ بضمّ «شام» بحرارة إلى صدرها وعانقتها طويلاً، من دون أن تنبس ببنت شفة.

على مائدة الغداء في المنزل أخبرها والداها بأنّ زملاءها السّابقين في مدرسة الباليه سافروا برحلة ترفيهيّة إلى جمهوريّة «بيلاروسيا» وسيمضون مدّة نصف شهر، يقدّمون خلالها بعض عروضهم ويتعرّفون إلى معالم البلاد وثقافتها، وسألاها إن كانت ترغب بالعودة لمتابعة تدريبها معهم بعد عودتهم؟. انتظرا قليلاً ليسمعا منها تعليقاً، لكنّ «شام» الحالمة وقد نبتَ لها جناحان جديدان، واكتسيا بالرّيش القويّ، ابتسمتْ ابتسامة مشرقة وطارتْ عن المائدة تحت نظرات استغرابهم الشّديد، إلى لوحها الصّغير المركون في الزّاوية، الذي رافقها منذ طفولتها الأولى وحتى الآن، لتسطّر عليه بفخر وثقة عبارة خالدة للرّاحل «سعد الله ونوس» رأت أنّها تعبّر بأبلغ الكلمات عمّا تريده وتتمنّاه هي وأهلها ووطنها وكلّ محبّيها «إنّنا محكومووون بالأمل».

حكاية سر الزيت.. الدهشة.. ولذة الاكتشاف

• علي المزعل

يقال: إن الأديب عين الصقر، يرى أبعد مما يرى الآخرون، هذا أمر ممكن جداً ما دام الصقر يحلق في الفضاءات الرحبة، ويلاعب الريح فوق القمم الشاهقة.

لكن المدهش أن تكون الرؤية من عتمة السجن، ومن خلف القضبان، ومن بين أظافر الجلاد..

وأن يُسجنَ الجسد، وتوثقَ الأيدي.. هذا أمر ممكن أيضاً.. لكن أن يُسجنَ العقل، وتُصادر الإرادة، ويُقتل الأمل فهذا أمر مستحيل.

هذا ببساطة ما يمكن أن نستنتجه ونحن نودع السطر الأخير من رواية الأديب الأسير وليد دقه /حكاية سر الزيت/ وقد مضى على اعتقاله ما يزيد على ثلاثة عقود.

«حكاية سر الزيت» كما نعتقد شكلت إضافة جديدة ومتميزة لسرديات الناشئة الفلسطيني ولأدب الأطفال وأدب السجون بوجه عام..

الإضافة التي امتلكت عوامل النجاح بأبعادها الفنية والفكرية وقدرتها اللافتة في الوصول للمتلقي عبر بناء فني منجز، يشير إلى تمكّن الأديب من أدواته الفنية وصلته الواعية بالواقع العربي، ونضجه الفكري والعقائدي ووعيه للتاريخ.. حين يكون التاريخ قاعدة الانطلاق نحو المستقبل، والرواية بمجملها تقوم على نظرية الاختراق.. قدرة العقل المقاوم على الاختراق واجتراح الحلول مهما بلغت قوة الاحتلال وغطرسته وجبروته.. على أن هذا الإختراق لن يتم إلا عبر العقل الجماعي المنظم وامتلاك أدوات البحث العلمي وإرادة الانتصار.

بطل الرواية الطفل جود لم يأت إلى الحياة كما جاء الآخرون بل كان ثمرة لنطفة تم تهريبها من المعتقل اختراقاً لكل إجراءات الاحتلال.. وها هو الآن يتجاوز العاشرة من العمر ولم يزر والده المعتقل، لأسباب أمنية كما يدعي الاحتلال وقد ظل هاجسه طوال هذه السنوات: كيف يمكن أن يزور والده داخل معتقلات الاحتلال؟

والعبارة التي لم تبرح لسانه يوماً: «بدي أزور بابا بدي أزور بابا».

ومن أجل ذلك يفعل المستحيل.. ويتشاور مع أصدقائه من الحيوانات، الأرنب سمور، والعصفور أبو الريش، والقط خنفور، والكلب أبو ناب، والحمار براط حمار أبو عمشه.. ويأتي هذا عبر أنسنة الحيوانات، المفهوم الذي ألفناه كثيراً في أدب الأطفال والأدب العربي بوجه عام منذ زمن طويل، حيث أنسن الشعراء العرب الحيوان والجماد وخاطبوا الأطلال وبثوا همومهم لرمال الصحراء ونجوم الليل وحيوانات البر.

وبعد التشاور يتمكن جود وأصدقاؤه من اختراق جدار الفصل العنصري والانتقال إلى الجانب الآخر من فلسطين.. لكن مخاطر الطريق تدفعهم للتراجع والبحث عن وسائل أخرى للوصول إلى المعتقل إلى أن يصل بهم الأمر إلى أم رومي، وأم رومي هي زيتونة فلسطين المعمرة التي تجاوز عمرها الألف وخمسمائة عام حتى تحولت التجاويف في جذعها إلى ملاذ آمن للمقاومين، وهي من يمتلك عبقرية المكان وعصارة الحكمة والتجارب مع الغزاة.

تقول لجود وأصدقائه: إن زيارة والده أمر ممكن وتنصحهم بالاختباء في جذعها لأنها علمت أنها ستُقتلع خلال وقت قريب وسينقلها الغزاة إلى مكان آخر ويمكنهم الانتقال معها.. على أن سر الاختفاء لا يمكن أن يتم إلا بعد أن يدهنوا أجسادهم بعصارة حبات الزيتون الطافحة بالزيت الذي يشفي المرضى ويساعد على الاختفاء إذا نجحنا في اكتشاف سره من خلال البحث والمثابرة والتحليل.

وبالفعل يتمكن الأصدقاء من اكتشاف هذا السر وينجحون في الدخول إلى زنزانات الأسرى والتحدث إليهم دون أن يراهم أحد..

وتسود المعتقل لحظات من الدهشة والارتباك واستنفار الأسرى وهم يسمعون الأصوات ولا يرون الأجساد ينادي جود.. «يا أبو جود، يا كميل أبو حية».. يسمع كميل الصوت فيظن أنه يهذي.. هل يعقل أن يكون جود؟! فأنا لم أسمع صوته ولا مرة واحدة، ثم كيف له أن يأتي إلى السجن؟ ويأتي الصوت مرة أخرى يا أبو جود، يا كميل أبو حيه.. «أنا جود يابا» أنا ابنك جود.. شو جابك على السجن يابا؟ أجيت أشوفك يابا.. يصيح كميل أبو حية: أنا انجنيت يا ناس.. صوت ابني براسي» يقول الأسير نادر العامري.. يا أبو جود اهدأ يا رجل.. أنا سمعت صوت جود.. كلنا سمعنا صوت جود، جود موجود معنا.. ويأتي صوت جود مرة أخرى.. «يابا أنا هون عند الشباك اهدأ لأحكي لك القصة من أولها.. ويستمر الصوت ويسمعه الجميع.. صوت جود الذي يأتي من فضاء المعتقل هو ضمير فلسطين الحي.. سمعه الجميع وأنصتوا إليه، وعبر الحوار يتم فضح عنصرية الاحتلال وإجراءاته القمعية ومصادرته لحقوق الأسرى وقبل أن يغادر جود يدفع لوالده مجموعة من الصور ويقول: «هذه صوري، صور احتفال منحي شهادة التفوق في العلوم وهذه شهادة التقدير».. تناولها أبو جود وهو يصرخ «شايفين.. شوفو شوفو.. هاظا جود.. هاظ هو المستقبل»

يقول نادر العامري: «ابنك عبقري يا كميل» لم يكن جميع الأسرى يعرفون حكاية سر الزيت لكنهم جميعاً عاشوا لحظة الإنتصار.. ويقول جود: إن ما تم حتى الآن هو البداية والأمر يحتاج إلى مزيد من البحث العلمي.. وكل ذلك من أجل تحرير أقدم أسير عربي.

وهنا تأتي لحظة التنوير ولحظة الدهشة ولحظة الإنعطاف حيث نكتشف أن أقدم أسير عربي ليس كميل أو أحد رفاقه بل.. هو المستقبل العربي.. المستقبل العربي هو أقدم أسيروكل ما نقوم به من مواجهات هي من أجل تحريره.

نهاية مدهشة بلا شك وقد جاءت خروجاً على مسارات السرد حيث يتركز اهتمام المتلقي على تحرير الأسير كميل أبو حيه.. لتأتي النهاية كما يراها وليد دقه بعين الصقر المحلق في فضاءات الوطن الكبير.

«حكاية سر الزيت» رواية تزاوج بين الخيال والواقع.. ففي الوقت الذي تحلق فيه في عالم الخيال والأسطورة تجد نفسك في قلب الواقع العربي.. وكأن هذا الواقع بما فيه من مرارات هو عالم خيالي يتجاوز حدود العقل.،، وحكاية سر الزيت بما امتلكت من نضج فني واستيعاب لقاموس الناشئة، وحضور للمكان الفلسطيني «مرج ابن عامر، العفوله، وغيرها..» والمكان في الرواية الفلسطينية والجولانية وفي كل حالات الفقد لم يعد مكوناً سردياً أو فضاءً لاحتضان الأحداث.. بل هو حالة مقاومة تقف في مواجهة كل محاولات الطمس والإلغاء وتزوير الجغرافية».. الرواية بهذا المعنى تقف بجدارة في مواجهة أدب الأطفال الصهيوني العنصري الذي شكل على الدوام رافعة من روافع الفكر الصهيوني تحريضاً لقتل العرب وتهجيرهم، وتزداد أهميتها أيضاً إذا عرفنا أن أدب الأطفال داخل فلسطين المحتلة ليس في أحسن حالاته.. حيث أشار الكثير من الباحثين أن الإصدارات المتعلقة بالأطفال لا يتجاوز 2% من مجموع الإصدارات داخل الوطن المحتل وبمعدل مئة نسخة لكل إصدار علماً أن نسبة الأطفال في المجتمع الفلسطيني تزيد على 56% كما يشير الدكتور جميل حمداوي.

ويؤكد ذلك الكاتب جميل داري حيث يقول: يلاحظ في فلسطين غياب كامل لدور النشر الخاصة بالأطفال حتى في الجامعات لا يوجد مثل هذا الاهتمام» ومعظم الأعمال تطبع خارج فلسطين في مصر وسورية ولبنان والأردن».

لهذه الأسباب نؤكد أهمية رواية «حكاية سر الزيت» وإصدارها في هذا الوقت الذي نعيش فيه حالة الاشتباك اليومي بين أسرانا الأبطال وقوات العدو الصهيوني.

ربما تحتاج هذه الرواية لدراسة أعمق.. فكل ما قلته حتى الآن هو انطباعات لقارئ عادي.. وقد أحببت بطل الرواية الطفل جود لأنه أيقظ في داخلي ذاك الطفل الذي كنته قبل ستين عاماً حيث كانت خطاي تتعثر بحصى الطرقات المفضية إلى فلسطين على الشاطئ الشرقي لبحيرة طبريه.. والفارق بيني وبينه أني لم أكن بطلاً في يوم من الأيام.

× تحية للأسير وليد دقه ولكل الأسرى العرب في فلسطين والجولان.. وللحركة الأسيرة التي شكلت على الدوام جناحاً متقدماً لحركة النضال الوطني الفلسطيني.

وجه القيامة الأولى..

• محيي الدين محمد

إنّها فلسفة المكان.. فهل يشتغل فيه الإنسان على اختبار سلوكه؟!.. وربما ترافقه بعض العواطف السّرية بانسجام باطني، مفتوح على الأرض والسّماء، بحيث يتحول ذلك المكان بعد الرّحيل عنه إلى ذاكرة لا يمكن أن تنسى في وجدان من كانوا يعيشون بداخله زمناً طويلاً..

إنّها أبجدية الأمانة التي قد تكون طالعةً من كتاب السّيد المسيح في إنجيله الموزع بين الصور القائمة على الأرض، ولكن بأناقة روحية، كاتمة للصوت أحياناً، وكأن صاحب ذلك الصوت يرغب أن يبدع في سلوكه اليومي مسرحيةً، تظل فيها الأمانة على خشبة المسرح ينقلها عشاق القطاف للثمرة الأولى، كي يناصروا أهل الحاجات الذين ما زالوا يرقبون ورقة «الرّزنامة» التي تسقط على الأرض كلّ يوم إيذاناً بانتهاء العمر.. والخلاص من الفقر والعوز في حياتهم التي عاشوها باسترجاع إنساني رغم كلّ القضايا التي ظهرتْ في أيامهم.. وهي اشتغال أبناء الشياطين الوافدين من كل مكان على الاقتداس المجهول بالمسارات الطارئة، وقد اخترقوا فيها المنازل واغتالوا العقول، وكانوا وراء الأزمة المركبة والمستوردة التي ما زال العرب السوريون يعانون منها منذ ثماني سنوات وهم أصحاب القراءة الصحيحة في الرّسالة المحمدية الأولى التي ترمي إلى التهذيب، والحرص على إسعاد الآخرين فيه بهذا المعنى سألفت الانتباه إلى قصة الأمانة كفقرة نقلها عبر مسرحيته المهندس /عميد لحود/ وهو الموظف في المصرف الصّناعي بطرطوس، وقد التقى براتب أحد المدرسين المتقاعدين في إحدى زوايا المصرف المنسية، والذي كان قد سقط سهواً من جيب صاحبه في العشرين من آذار عام 2017ميلادية، وبعد أن قرأ المهندس في الأسماء الوافدة صبيحة ذلك اليوم عرف أن الرّاتب هو الذي فقده ذلك الرّجل، فاتصل به مسرعاً طالباً إليه اللقاء والحصول على مرتبه الشهري الضّائع فشكره الموظف على موقفه النبيل..

إنها فلسفة المكان الطّالعة من أبجدية المسيح الأولى.. والرسالة المحمدية في قرآنه أيضاً.. والقاضية برد الأمانة إلى أهلها..

في زمن يشبه وجه القيامة الأولى..

الطير

•الكاتبة: ميليسا ستيفنسون

•ترجمة: رنيم زكريا بركات

ذهبت بنا أمي بسيارتها إلى مطار إنديانا في زرقة الفجر، وكنا قد تركنا خلفنا والدي وأخي لينعما في النوم في سريرين دافئين. كانت رحلتنا هذه من المرات الأولى التي أغادر فيها إلى مدرستي الداخلية، ولم تكن المناسبة الاحتفال بافتتاح الفصل الخريفي لسنتي التحضيرية، وإنما عودتي من إجازة عيد الشكر. كنت وقتها في سن الخامسة عشرة أرتدي الملابس الأنيقة التي اشترتها لي أمي: «جينز» ممزق كبنطال راكبي الخيل، زوج من الأحذية بلا كعب، سترة بلفحة قطنية على الكتف أرجوانية اللون تناسب جواربي المترهلة. إنه يوم قد يهطل فيه المطر أو الثلج أو البَرد أو يوم لا يحدث فيه شيئاً.

تقول أمي:» ألست متحمسة للعودة؟»

أهز كتفي.

كانت تنظر إلي بطرف عينيها وهي تقود السيارة بيد واحدة، ويمكنني القول إنها كانت تريد يائسة أن أتحدث إليها، إنما الكلمات الوحيدة التي كانت تدور في خلدي تأتي من المونولوج الداخلي الذي كنت أمارسه خلف الكواليس: « نورا « لابسين، «سونيا « لتشيخوف، « لورا « لوليام،فليس لدي لغة خاصة بي،فهذا الوجه ذو الأنف الكبير والأسنان كأسنان الخفاش والحاجبين الغليظين لا يمكن أن يكون وجهي.

- « ألا تستطيعين الردّ على الأقل؟ أهذا صعب عليك؟ " كانت تشد صوتها بقوة، كسلك مشدود.

- أقول لها: " نعم ، أظن أنني متحمسة " وتضيف إلى ذلك الضياع والرعب والغضب أسباب لم أستطع فهمها.

- "حسنا"، هذا جيد. لأن إرسالك إلى تلك المدرسة سيكلف ثمناً باهظاً. آمل أن تعرفي.»

- أنا في منحة دراسية.»

- المنحة الدراسية لا تغطي كل شيء". تصرف نظرها عن الطريق مرة أخرى لتنظر إليّ بعين بغيضة.

لم يكن لدي أي سبيل لأنسى كيف كنت أشعر بعدم الراحة معها عندما تذكر لي التكلفة في كل مرة نتحدث فيها مع بعضنا. أشاهد الشمس الساطعة وهي مشرقة في السماء، بينما شعوري بالوحدة كبير ومظلم كأنه كوكب غير مكتشف.

عبرنا النهر الأزرق، المعروف بعلامته الصغيرة على الجسر الذي أتوقع في كل مرة أننا ذاهبون إلى إنديانابوليس.وهذا يذكرني بالكتاب الذي كنت أفضله في طفولتي بعنوان " دببة النهر الأزرق "، القصة التي تروي تلك الأيام التي كانت تعيش فيها الحيوانات البرية هنا، قبل أن يتم تقسيم الأرض ، وتسييجها ، وحرثها في صفوف متساوية.

زمّت أمي شفتيها وأصبح فمها كأنه خوخة مجففة تتماشى مع لون أظافر يديها. تنهدت لتتأكد أنني قد عرفت أنها لا تتحدث إلي لأنني أنا بغيضة، وهي الضحية، وأن الحياة لا يمكن أن تعاش بهذه الطريقة. فقد أرادت من ابنتها أن تدرس الباليه، وترتدي الثياب التي تناسب ما ترتديه الأم وابنتها، وتفوز بمواكب الجمال.

أرحت جسدي على باب السيارة، ويدي على المقبض، والحق يقال، كنت متحمسة في أغلب الأحيان أن أخرج إلى المطار بسماعاتي، ودفتر مذكراتي، وعشرين دولاراً.

شيء كبير رمادي اللون ضرب زجاج النافذة الأمامي مع صوت كأنه تكسير العظام.انعطف الطريق ثم انعطف مرة أخرى وغاب عن الأنظار ونحن ندور وندور وندور حتى انتهى بنا المطاف إلى ممر الانهيار.

للحظات كان كل شيء ما يزال هادئاً.

امتقع وجه أمي ، التعبير الذي كنت أتصور أن الروح قد ترتديه حين يتمزق الجسد الذي تسكنه. كان فمها يتحرك ، لكنه غير قادر على لفظ كلمة واحدة.

كان أحدهم يطرق على الزجاج. يسأل: " أأنت بخير؟". كنت أشاهد شاحنته الزرقاء أمامنا، وقد أشعل أضواءها الحمراء التي تومض وسط الضباب.

قالت أمي وهي تنزل زجاج نافذتها: " أجل،لا أعلم ما الذي حصل. شيء ما ضرب الزجاج الأمامي. أعتقد بأنه طائر".

«طائر؟ وكان الرجل يتنقل بنظراته بيني وبين أمي مندهشاً.

قالت: نعم ، طائر؛ طائر كبير.

هززت برأسي بقوة، وتحوّل جسدي إلى المسن الذي يضاعف سرعة الأدرينالين لدي.

« قال الرجل وكاد أن يبتسم: أنت محظوظة لأن زجاج نافذتك لم يتحطم.

هززنا رأسينا وضحكنا واعتذرنا عن طلب المساعدة منه بلطف. أعادت أمي رفع زجاج النافذة، تنفست بعمق، وعادت أدراجها إلى الوراء متوجهة إلى الشمال، على الطريق السريع.

قالت لي: "لا تخبري والدك، فكل شيء على ما يرام. «

كانت على حق.فالسيارة بخير، واللحاق بالطائرة بخير.وسنبقى على هذا النوع من الخير لفترة طويلة.

ولكن ما لا أتصوره هو كيف يمكن لطائر أن يرتكب خطأ كهذا ويطير مباشرة ليصطدم بالسيارة. أعدت تخيّل المشهد للحظة، وما إن انطلقت السيارة " الهوندا " ورجع عقلي إلى سرعته الاعتيادية حتى سطعت الحقيقة في مخيلتي: لقد كنا أول من انحرف وخرج عن المسار لنصطدم بالطائر.

صوفي داربوفيل
صديقة ملاك الشعر...

•إيلين كركو

ولدت الشاعرة صوفي داربوفيل في باريس عام 1810. لم تكن جميلة المحيا، لكنها كانت عذبة الحديث، تُنسي أبياتها الرقيقة من حولها ملامحها الحادة.

وصفها من عاشرها بأنها بقيت بريئة كالأطفال، محببة إلى القلوب مثلهم.

تزوجت الجنرال فرانسوا داربوفيل ورافقته في ترحاله إلى أن منعها المرض من المزيد من السفر فعادت إلى باريس وافتتحت صالونها الأدبي.

بقيت أشعارها في الظل، وبقي اسمها مغموراً مع أنها كانت ملهمة لعدد من شعراء فرنسا الكبار ممن عاصروها، وتبادلوا معها الرسائل على مدى سنوات، ورأوا في أبياتها رقة وشفافية قل نظيرها.

أنهى مرض عضال حياتها القصيرة عام 1850، مسدلاً الستار على حياة امرأة لم تعطها الحياة ما تستحقه فعلاً.

الجَدَّة

ارقصن يا فتيات القرية
غنّين أغاني الحب الحلوة،
أسرعن، فيا للأسف، سماء عاصفة
ستحمل الظلمة لأجمل أيام عمركن
وأنا أراكُن، تعود بي الذاكرة
للذاتي، ولنجاحاتي
كنت شابة وجميلة مثلكن
وكنت أعرف مثلكن
معنى أن يتسلل الشيب
إلى شعري الأشقر
وأعرف الشتاء الذي يسبق الربيع
ارقصن يا فتيات القرية
غنّين أغاني الحب الحلوة،
أسرعن، فيا للأسف، سماء عاصفة
ستحمل الظلمة لأجمل أيام عمركن

ساذجة وبلا خبرة
آمنت بالحب وعهوده
أحببت بثقة
نؤمن بالسعادة في الخامسة عشرة
وبوردة قطفها "جوليان"
رمزاً لوفائه
وقبل أن تذوي
ما عدت أخطر في بال ذاك الجاحد!

ارقصن يا فتيات القرية
غنّين أغاني الحب الحلوة،
أسرعن، فيا للأسف، سماء عاصفة
ستحمل الظلمة لأجمل أيام عمركن

في سن العشرين
خفّف صديق مخلص حزني الأول
كنت جميلة رغم حزني
قدم لي قلبه ويده
وباغتتنا الشيخوخة
مرت بنا السنوات والحب بيننا
حطّم الموت حنانا
كم كان صديقي سعيداً!

ارقصن يا فتيات القرية
غنّين أغاني الحب الحلوة،
أسرعن، فيا للأسف، سماء عاصفة
ستحمل الظلمة لأجمل أيام عمركن

لا تتوقفن عن الرقص من أجلي
السماء صافية، وأنا في الميناء
أذكر مباهج الطفولة الصاخبة
ما زالت الجدة تبتسم
وتمسح دمعها
لا تدعن الحزن يغزو قلوبكن
فالشمس تسطع فوق الجليد
والشتاء يحتفظ ببعض الزهور

ارقصن يا فتيات القرية
غنّين أغاني الحب الحلوة،
أسرعن، فيا للأسف، سماء عاصفة
ستحمل الظلمة لأجمل أيام عمركن

× × ×

ملاك الشعر والفتاة الشابة

ملاك الشعر:
استيقظي يا أختي، أنا أمرُ قربك!
من طيفي المقدس أمنحك السلطة
ستسقط عليك النار المقدسة وحممها
أداعب جبهتك بلازورد جناحيّ
بين أصابعك الحائرة أضع قيثارتي الذهبية
فلتستيقظ روحك، ولتنطلق!...

للربيع يوم واحد، يمضي كل شيء ويتغير
أسرعي واقطفي زهور الأرض
فيسكر غناء عطرها حواسك
قدمي الأبيات للسماء كما يُقدم البخور!
غنّي فجرك الجميل يا أختي الصغيرة
وأعلني اسمك للعالم الذي يجهله

الفتاة الشابة:
أرجوك، أبعد عني نَفَسك الملهم!
لا تضغط القيثارة على قلبي!
دعني وشأني في منزلي المتواضع
بخجلي، وجهلي
غار الشاعر يفرض الكثير من التعب
أحب الحجاب السميك الذي يُظلمُ قَدَري
على أيامي أن تنزلق على محيط العالم
دون أن تخدش رقة الموج
على صوتي أن يصدح في قلب الغابة فقط
فلا يكرر الصدى نغمة واحدة منه.

ملاك الشعر:
أناديك يا أختي، المقاومة بلا جدوى
سأكبلك بروعة زهور تاجي
تناضلين بلا فائدة تحت عقدها الطرية
سأطيّر شعرك بنسمة جامحة
وأداعب جبهتك بأنفاسي الملتهبة

يدق قلبي قرب قلبك، ويدي تمسك بيدك
أفتح أمامك المعبد المقدس حيث يغني المعجبون
وُثِّقَت العهود، لن أتركك أبداً!
في وديان أحلامك البعيدة
سأعير صوتي لزهور المرج
فتهمس: غني يا زهور
فحياتك ليوم واحد بلا ألم
ستصغين لي مع النسمة الحائرة
التي تقود القارب في سباقه البعيد
سيردد همسُها: أنشدي أيتها السماء الهادئة
وألقي بزرقتك تحية للربان!
سأحرك العصفور الغافي بين الأوراق
والزبد المتكسر على الشطآن
سيملأ البخور الهواء الذي تتنفسينه
وبإمرة قوانيني، ستغنين يا أختي!

الفتاة الشابة:
سأسمع صوتك، وتناغمك الإلهي
وأحلامك في الحب والانتصار والموهبة
سترتعد روحي كقطعة من السماء
وتترقرق دموع الفرح في عيني
لكن دعني أحتفظ بهذا السر المقدس في قلبي
فالأرض تتجاهله.

أخفِ جبهتي الشابه تحت أطيافك البيضاء
فروحي لا تجيب سواك يا صديقي!
وإذا هربت مني عبارة واحدة في دربي
سيغفر لي الرب بعطفه
تحترم الموهبة قوانين البشر
لكن القلب الحزين يخفي أسراره.

ماذا سيعطي لمن يجهلون
لمن تبهجهم معاناتنا
تخشى قيثارتي الضعيفة البريق والضوضاء
ترسل أغنياتها ليلاً مثل "فيلوميل"
وداعاً! دعني في أحلامي العذبة
عُد برقّة إلى وطنك الجميل!

بقي الملاك قربها، يبتسم أمام دموعها
يشدّ عُقد حبال الورد
انتزع ريشة من جناحه اللازوردي
وضعها في يدها المترددة
عبثاً تقاوم، لقد انتصر.. وابتسم
لمن راحت تبكي.. وتكتب...

معرفيّات واستعرافيات (توهُّماتالدوغمائية)(١)

• د. معن النقري

يلزم التمييز بين «غْنوستيكي» و«غنوسيولوجي»: هو بدوره فارق من قبيل الفارق بين بْسيخيكيوَبْسيخولوجي: أحدُهما توصيف واقعي أنطولوجي، والآخر /الثاني ـ علْمي/ معرفي، حتى حين يتطرق الكلام إلى المعرفة ذاتها كموضوع ومادة بحث: هل هي المعرفة ذاتُها فقطْ كواقع؟ أم العلم (اللوجيا/اللوجيك...) الذي يتعامل معها (غنْوسيولوجيا)؟ هنا المسألة، و«هذا هو السؤال»...

المؤلف«يو. ب. فيدين»من لاتفيا من الجامعة الحكومية «ب. ستوتْشكي»، له كتاب مطبوع في مدينة «ريغا»: زيناتني، عام 1983-309 صفحات. بعنوان: «بزنانييوزْنانييي». ـ По3НаНие и 3НаНие ـ أي ما ارتأيتُ بمصطلحاتي المبتكَرة التعبير عنه على أنَّه: «التعرُّف (أو الاستعراف...) والمعرفة». وهو كتاب مؤلف من مدخل وأربعة فصول وخاتمة، وقام بمراجعة الكتاب في تقرير «غ. م. دانيْنْغيرْش» مع إيضاح أنَّ «التقرير» مقدَّم من «مركز المعلومات العلمية في العلوم المجتمعية». (تصنْيُفه ЦНUOH اختصاراً) لدى أكاديمية العلوم اللاتْفية «السوفييتية» (حينها). وتستطيع الاستنتاج بنفسك أنه مقدَّمٌ منه للجهة الأكاديمية المركزية في موسكو في هذا الشأن التي هي الجهة المُصْدرة لسلسلة المجلات والمراجعات والعروض في سلسلة العلوم المجتمعية، إنها ما يُسمَّى «إينيْون» اختصاراً ـ UHUOH أي «معهد المعلومات العلْمية في العلوم المجتمعية» (مركز تابع لمعهد). وورد التعريف به في المجلة الدورية الفلسفية للمراجَعات ـ Р.Ж بعنوان «العلوم الفلسفية» من سلسلة 3 من العلوم المجتمعية في «الاتحاد السوفييتي» ـ العدد 2 لعام 1984 (1984/2). والموجز عنه في الصفحات 23 ـ 26. ويتضمن موضوعاً أنموذجياً محْورياً يحمل عنوانُه ذاتُه خلاصة الخصوصية الروسية اللغوية والفكرية غنْوسيًّا (ايبيستيميًّا).

ـ جاء ذلك في جملة أوعبارة: «ليس كلّ مثال (أوْ بْراز ـ ОБрα3) للوعي قابل للمعرفة (تدقيقاً: قابل للتعرُّف أو الاستعراف) أيْ ـ بين قوسَين ـ (غْنوسْتيكي)»، وبالفعل فالتعرف (أو الاستعراف) هنا يجري كعملية طبيعية فطْرية عادية يقوم بها أيّ شخص أو إنسان دوريّاً وباستمرار، وليس هو بعالم أو مختص بدراسة المعرفة وفقْهها ولا هو غنوسيولوجي ولا ابستمولوجي. وغير الاختصاصي بهذه الأمور ليس بحاجة من أساسه لتوصيف نشاطه الطبيعي وسلوكه المعرفي (الواقعي/ الأنطولوجي...) بأنه علْم ـ معرفي (في حال وعندما نستخدم تعبيراً أو صفة غنوسيولوجي)، بل إنَّ استخدام هذه الصفة أو تلك يؤدي إلى دلالات ومعانٍ متباينة وفارقة: الشيء أو الحدَث الغْنوسْتيكي هو حدث معرفي صرف ومحايد، أمَّا الحدَث الغنوسيولوجي فهو حدَث علْم معرفي (فلسفة المعرفة) وغير محايد ولا فطري بل دارسي وباحث وفاحص ومتأمل في الحدث المعرفي ذاته، فهل الناس جميعاً في نشاطاتهم وَسلوكاتهم المعرفية الفطرية يتأملون حدَثهم المعرفي «الغريزي» ذاته ليل نهار ليُخضعوه لقَنْونات ومتطلَّبات ومبادئ واشتراطاتَ علم المعرفة (الغنوسيولوجيا)؟ طبعاً لا. والشيء ذاته يجب أن ينطبق على استخدام مصطلح الابستمولوجيا وأخواتها: ليس كل شيء هنا ابستمولوجيًّا، بل وأكثرُ الأشياء هي ابستيمية، وبعضُ هذه الابستيمياتابستمولوجي، في المستوى الخاص والتخصصي والنخْبوي من المسألة: من جهتي أستخدم منذ زمن لا بأس به تعابير: ابستيمي/ ابستيميّة ـ كصفات ـ ، وابستيميًا كظرف أو حال أو تمييز... ، وبالمقابل أقترح توظيفَ هذه الصفة المبْتكرة هنا: غْنوستيكي لصياغة ظرف/حالة/ تمييز من قبيل: غْنوسْتيكيًا أو غْنوسْتيًا... حين تكون العمليات المعرفية (التعرُّفيةَ/الاستعرافية) طبيعيةً فطْرية في جريانها الطبيعي غير القَصْدي وغير الواعي، والاعتباطي غير المنظَم، وعكس ذلك يكون غنوسيولوجيًا ويكون ابستمولوجيًا، كما طفت العادة بعجرها وبجرها وأخطائها وشطحاتها وتهْويماتها غير النقْدية. كان يلزم التنبيه منذ البداية أنْ صيغة غْنوسْتيكي ليست طارئة على مسائل نظرية «المعرفة»، التي لم ترتبط علْمياً بالمعرفة إلا في العصر الحديث، وتحديداً عندما ابتكر أحدُ الاسكوتلانديّين في القرن السادس عشر مصطلَح غْنوسيو/لوجيا (علم المعرفة)، أمَّا قبل ذلك فكانت الغنوسيوُ من غير لوجيا، وفي ارتباط مع كلمة غنوسيس فقَط، اليونانية، بمعنى المعرفة (وشقيقاتها التفصيلية تدقيقاً في الدلالة)، ومن هنا انتشرت الحركة الفلسفية اللاهوتية المسيحية الأولى في العالم ذات الارتباط بالمعرفة كلّياً في سورية (القديس فاسيليد) وفي مصر (القديس فالنْتين)(1) وسُمِّيتْ «غنوصية» (منغنوص/غنوسيس) أي أنها الفلسفة المعرفية أو اللاهوت المعرفي، واستمراراً لذلك نشأت العرفانية الصوفية المعروفة عربياً ـ إسلامياً، لذا فالغنوستيكية والغنوصية والعرفانية متواشجة بصلات رحم (بالمعنى التقني الاحترافي الإجرائي عند تحديد المضمون) تعود إلى حضن المعرفة مباشرةً من غير وسيط علْمي (لوجي)، وَأمَّا «علْم ـ المعرفية» أو الغنوسيولوجيَّة فهي من بَنات العصر الحديث، منذ وبعد القرن السادس عشر، انطلاقاً من انكلترا أولاً ـ من اسكوتلاندا ومُبتكر مصطلحالغنوسولوجيا فيها منْ ذاك.

نعود إلى «فيدين» من ريغا/ لاتفيا، حيث نجد معلومات أساسية استقرت عن نظرية «المعرفة» وعن الحقيقة وتعريف التعرف/الاستعراف (بو/زْنانييي) الخاصّ وأنواع الوعي مع الإشارة إلى أنه «ليس كل نوع أو «مثال» للوعي استعرافياً (غْنوستيكيًا)»، كما نوَّهْنا بدايةً، وهنا تجد أيضاً النسبي وَالمطلق في المعرفة وعملية المعرفة والاستعراف، ومكوّنات «النشاط الاستعرافي» كمركَّب مؤلَّف من: الاستعراف (بو/زْنانييي)، والتطبيق والكلام مع أولوية التطبيق.

وهنا تجد أيضاً الحسي والعقلاني (العقلي) كدرجات في الاستعراف، ودور الإحساسات والإدراك الحسّي والتجربة كوسيلة استعرافية للعالم المادّي، ومنها النشاط التطبيقي المرتبط بموضوع ما (أي المتَموْضع)، وبعد المرحلة الحسية التجريبية، فالمكْوِّن العقلي، بدْء عملية صياغة المقولات (كاتيْغوريشيْن) لما هو مدرَك، وذلك عن طريق الأحكام التي تَنسب ما هومدرَك إلى أصناف وصفوف الأشياء، والصفات، والعلاقات. والإحساسات بحد ذاتها ليست «مُثُلاً» معرفية («غْنوستيكية») لكنَّها مَعين/منبْع موثوق لاستعراف الظواهر المادّية. ولا يدخل في تكوين «المُثُل الغْنوستيكية» إلا التصوُّرات الحسّية المعمَّمة التي تتشكل في الوعي بواسطة الخيال والتفكير الموجَّه، وهذه التصورات الحسية تصبح معيناً/منْبعاً للمحتوى الموضوعاتي (المتموضع) للمفاهيم والأحكام، كما تصير واسطةً لتحديد انتساب الأوصاف المقولية إلى وضْعيات أوْ حالات/مواقف موضوعاتية (متوضْعة/متموضعة/مُوَضَّعة) محدَّدة وملموسة. وبهذا ترتبط مشكلة التفسير/التأويل الحسّي لمحتوى وبنْية المُثُل الغْنوستيكية («مشكلة الوضوح أو الجلاء»).

ومنْ أشكال الاستعراف البنْية المنطقية والمَقولية للتفكير، والقوانين المنطقية هي الشروط الشكْلية ليقينيَّة الأحكام (مدى كونها حقيقية).

ومنَ الناحية التَصنيفية (التيبولوجية) يقسِّم المؤلف الحقائق إلى: مادية، وتحليلية، وشكْلية، وما يطابق كلاً منها من معايير/مقاييس الحقيقة.

الأحكام من الحقائق الشكلية التي تكون حقيقية بقوة بنْيتها المنطقية والقوانين المنطقية المطابقة، والتحليل المنطقي هو وسيلة إقرار اليقينية (الموثوقية) الشكلية أو الكذب والخطأ الشكلي، وإلى الحقائق التحليلية تنتسب البديهيات (أكْسْيومي) والبُنى النظرية للنظريات البداهية التي تصف خصائص الموضوعات البنائية (البنْيوية) التخيُّلية ـ أمثال التجْسيدات والتماثيل المكانية وأجسام/ أجرام الهندسة الاقليدية وغير الاقليدية، والأعداد، والغاز المثالي، والنقطة المادية وهكذا...

اليقينية (الموثوقية) المادية من خصائص التصورات الغْنوستيكية حولَ الظواهر الواقعية، المادية منها والمثالية على السواء.

مشكلة معايير/مقاييس الحقيقة في استعراف العالَم المادي أولويّة (ذات أهمية أولوية) في العلْم. ثمةَ مشكلات معقدة وغير معالَجة بعْد لمعايير/مقاييس الحقيقة في استعراف الظواهر المثالية، والوعي المجتمعي، والثقافة الروحية، ماضياً وحاضراً (القديمة والمعاصرة).

وفي الختام يشير المؤلف إلى أهمية تحديد وتعريف المصطلحات.

كنت أوضحْت أن يافطة أوعباءة الماركسية ـ اللينينية في كل مجال احتوتْ ضمنها ما هبَّ ودبَّ من التجديدات والابتكارات وحرية الحركة الفكْرية والفلسفية، وبدلاً من أن تشيح بوجهك جانباً زاعماً أن هذا كله بات معروفاً وقديماً وتقليدياً ومدروساً حتى النهاية اصبُر قليلاً وتفكَّرْ جيداً، لأنَّ هذا كلَّه سيتبيَّن أنه واجهات وغطاءات لعمل فكري فلسفي حرّ، وبدل تركيز البصر على العناوين والإيحاءات الخارجية تمَعَّنْ وتعمَّقْ في المضمون الحقيقي والطروحات الأصيلة من تحت ومن وراء حجاب.

أحدُ أمثلة ذلك في موضوعنا المعرفي/ الاستعرافيوالغنوسيولوجي الحالي سيكون كتاب بعنوان «النظرية اللينينية في الانعكاس»: مجموعة أعمال علْمية . ـ سْفيْردلوفسْك: جامعة الأورال الحكومية باسم «آ. م. غوركي»، 1983. ـ الحقيقة كمقولة غْنوسيولوجية/ فريق التحرير: لويفْمان ي. يا (المحرر المسؤول) وغيره، 149 صفحة. (2)

في الكتاب 21 مقالة مكرَّسة للمعالجة المنظومية تذكرْ معي جيداً أن المنظومية حديثة جداً وليست لينينيَّة في شيء م.ن لمبدأ الانعكاس، ومفهوم/نظرية الحقيقة من وَجْهة نظر جوانب وأشكال «المعرفة الحقيقية».

وبالطبع تكون البداية عادةً بالتعريف بالارث الغنوسيولوجي الماركسي وبنظرية الانعكاس الغنوسيولوجيةاللينينية وكل المبادئ والأسس المعرفية وعلم المعرفة المتداوَلة والمتبلْورة والمعروفة، مع التركيز على الموضوعية وعلى دور التطبيق والممارسة في عملية المعرفة وأولوية الموضوعي على الذاتي وعلاقتهما الجدلية المتبادلة، وجدل الحقيقة النسبية والحقيقة المطلقة، وأن مقولة الحقيقة ذات جانبَين: أحدهما أنها انعكاس مضمون وموثوق للواقع، وثانيهما باعتبارها برنامجاً لإدارة الواقع والنشاط التحويلي هو الوسيط في العلاقة الاستعرافية بين الذات والموضوع.

وينوِّه «ف. ن. ساغاتوفسكي» أحد أصحاب مقالات المجموعة العلمية في الكتاب أن: إطلاقية، ونسبية، وملْموسية الحقيقة تتحدد جميعاً في العلاقة بموضوع لا نهائي وبوضْعية (موضوعة/ مادة) نهائية.

وثمةَ فقرات مطوَّلة عن الحقيقة ومعاييرها/ مقاييسها، بل و«نظريتها» (عند «ف. بريدلي» وغيره)، يلفت الانتباه رأيُ «ب. آ. كيسلوف» أيضاً حول أن: التقْييم البداهي/القيمي (الأكْسيولوجيْ) هو بمثابة «عملية ونتيجة لاستخلاص ووعي قيمة الظواهر سواء أكانت موضوعية أم ذاتية»، وهذا التقييم القيمي/ البداهي يؤثر بفعالية على عملية الاستعراف بالإجمال وعلى بلوغ الحقيقة. ومن الملائم لبلوغ الهدف الاستقطابُ العالي للمقاربَة المنظومية لكشْف واستخلاص يقينيَّة التقْييم (مدى كونه حقيقياً).

تقليدياً نبسِّط الأمور ونعتقد أن الغْنوسيولوجيا الكلاسيكية (لاسيما في طبيعتها الجدلية المادية أو الماركسية واللينينية) إنما تركِّز على علاقة الذات بالموضوع/ تمثُّل (انعكاس) هذا الموضوع في الذات، لكنَّ هذا التبسيطَ لا يمرّ بسلام ولا يُرضي أحداً، وستجد مَنْ يجد الحيلةَ لتجاوُز الحواجز دائماً:

ـ «ف. ي. غارْ بوشْكين» يرى أنَّ المعرفة المثبتَّة في منظومة علامات، تُوصَّف عبر العلاقة بموضوع الاستعراف، وبذات الاستعراف، وبالمعرفة الأخرى أيضاً. وأيّ معالجة للحقيقة خارجَ الارتباط بهذه الجوانب هي معالجة ناقصة ومجرَّدة.

ـ «يي. آ. سيروفا» ترى أنه في النظرية العلْمية يمكن استخلاص مستويات: مفهومية عامّة (تصوُّرية)، وتجريبية (إيمْبيريكية)، ومَوْدَليَّة (نَمْذجية)، لذا فإنَّ مسألة يقينيَّة (حقيقيّة) المعادَلات البنيْوية (البنائية) للنظرية هي مسألة يقينية (حقيقية)؛ المبادئ العلْمية، والموضوعات المجرَّدة، والوقائع العلْمية.

ـ وتالياً يرى «ن. ف. سوسْلوف» أن وظائف النظرية العلْمية هي: الوصف، والتفسير/ الشرْح، والتنبُّؤ. إن تحليل النظريات المتنافسة كموديلات/نماذج نظرية لموضوع واحد، ومتكافئة من الناحية التجريبية (الإيمْبيريكية)، هو الذي يبيّن يقينية (حقيقيّة) هذه النظريات من النواحي الغنوسيولوجية والمنطقية والميتودولوجية (المنْهجية)، من حيث وظائفها الوصفية والتفسيرية والتنبُّؤية.

---

1 - في القرنين الأولَين بعد نشوء المسيحية، وقبل الإسلام.

2 - قام بالمراجعة «غ. ي. مارينكو» ـ مجلة المراجَعات ـ Р.Ж ـ «العلوم الفلسفية» ـ سلسلة 3: العلوم المجتمعية في «الاتحاد السوفييتي» ع5 لعام 1984 (ع1984/5) ص25 ـ 29.

مَنْ نَمْرَدَ نمرود

• حسن مخيبر قنص

نَمْرود كما وصلتْ أخباره إلينا هو طاغية جبّار مُتَألّه، فمن مظاهر ظُلْمه وجبروته أنّه كان يجمع النّاس ويأمرهم أنْ يحصدوا أرضاً لا يوجد فيها زرع حيث يقومون بالتّلويح بمناجلهم وجمع ما يحصدون طيلة النّهار بدون طعام وإذا اشتدَّ جوعهم وطلبوا طعاماً قال لهم: كُلوا ممّا تحصدون، والويل والثّبور لمن يتوقّف عن العمل،سأله مرّة حكيم: ما الذي نمردك ؟ أجابه نمرود: لم أجد مَنْ يردعني. ربّما هذه العبارات كافية لتوضيح ما جرى ويجري على أرض العرب خلال قرن من الزّمن، ولكن بما أنّ بعض النّاس مصابون بعمى البصيرة وسوء الفهم فلا ضَيْر في أنْ نُذَكّر الغافلين. فترامب هو من سلالة أولئك الذين ركبوا سُفنهم حاملين بنادقهم مُتَخفّفين من القيم الإنسانيّة ومن الشّرائع السّماويّة من سواحل أوروبا مُتوجّهين إلى القارة الأمريكيّة ليحطّوا رَحلهم على شواطئ المحيط الأطلسي الغربية، حيثُ بنوا الحصون وراحوا يتوسّعون في محيطها قاتلين كلّ من يعترض طريقهم من أصحاب الأرض الذين لم تكن حضارة البارود القاتل قد وصلتْ إليهم، ومُستعينين ببعض البُلهاء وضعاف النّفوس من أصحاب الأرض الذين كان مصيرهم في النّهاية كمصير أبناء جلدتهم الذين أسلموهم لأشرار أوروبا، بعد أن قضى أولئك الأشرار على سكان القارة الأمريكية - ولم يُبقوا منهم سوى قلّة استخدموها لخدمتهم – جهّزوا الأساطيل البحريّة وحَمّلوا عليها قَتَلَةً وبارودا وأغلالاً ووجّهوها إلى سواحل المحيط الأطلسي الشّرقيّة إلى سواحل القارة الإفريقيّة لالتقاط الأطفال والشّباب الأفارقة كما تُلتَقط صغار الطّير وقتل مَن يعترض طريقهم مُقاوماً وحشيّتهم، ولقد ساهم معهم في وحشيتهم وجرائمهم من تبقّى في أوروبا من أشرار حيث جهّزوا سُفناً واستأجروا قتلة وتوجّهوا إلى سواحل إفريقية ليصطادوا بشراً لا ليُشغّلوهم في أوروبا بل ليبيعوهم في سوق العبيد الذي استحدثوه على أرض القارة الأمريكية ليستخدمهم السّيّد الأوروبي المتحضّر في الزراعة أو العناية بالحيوانات أو خدمة السّيّدة الأوروبية. وهنا أقول للذين ما زال الغبش يحجب بصرهم وبصيرتهم ممن بُهروا بما رأوه من عمارة ومظاهر ترف وقوّة صناعية وعلى الأخصّ الصناعات العسكرية: ما ترونه هو تقدّم علمي تقني ماديّ جهدوا لتطويره لاستمرار قوّتهم من أجل قهر الشّعوب واستمرارهم في نهب خيراتها وقد تيسّر لهم ذلك من خلال الإنفاق على التّجارب المُموّلة بفائض ما نهبوه من خيرات الشّعوب، فما يُبهركم من مظاهر في الغرب ليس حضارة، فالحضارة بمعناها الصّحيح هي إيجاد الوسائل التي توفّر للإنسان في كلّ مكان ومهما كان لون بشرته ومهما كان دينه وكانت لغته الحياة الآمنة الكريمة. وأقول للذين يقيسون حجم ثقافتهم بكَمّ أسماء الكتّاب والأدباء والمُنَظّرين الغربيين: إنّ شيراكَ وفابيوس وتاتشر وطوني بلير وبوش وترامب لم يهبطوا إلى الأرض من المرّيخ ومعهم ثقافته بل أخذوا ثقافتهم من جوهر ما كتبه أسلافهم الذين تُعَظّمون ويكفي لتأكيد ذلك أن أذكر فيكتور هيجو الذي شُغفنا بقراءة روايته البؤساء المترجمة إلى اللغة العربية لما فيها من نفحة إنسانية، ففيكتور هذا هو مَنْ مَجّد أعمال نابليونَ أثناء احتلاله لمصر، هذه هي إنسانيّتهم ومن لا يُصدّق ذلك فلينظر إلى حجم الجمعيّات والمنظّمات الحقوقيّة والإنسانيّة التي استحدثها المُتحضّرون في أيّامنا من أجل التّدخّل في الشّؤون الدّاخلية للدُّول المستقلّة في قرارها فعلى سبيل المثال لا الحصر: حقوق الطّفل – حقّ المرأة – حقوق الإنسان –جمعيّة الرّفق بالحيوان – حريّة التّعبير– منظّمة الخُوَذ البيضاء، من المؤكّد أنّ المبهورين يقولون: انظروا إلى هذه الحضارة وهذا النّبل وهذه الأخلاق حتى أنّ بعضهم يصل به حدُّ الإعجاب بحضارة ونُبل وأخلاق هؤلاء إلى درجة القول: ألم يكن من الخير لنا أنْ يبقى هؤلاء مستعمرين بلادنا ؟؛ وبالطّبع دون إعمال عقولهم في المقارنة بين الأقوال والأفعال، دون أن يُحصوا عدد الأطفال الذين يموتون سنويّاً بسبب النّزاعات والحروب التي يُثيرها بين الشّعوب هؤلاء المُتحضّرون وبسبب الحصار الذي يفرضونه على الشّعوب التي تتمسّك باستقلالها وسيادتها على أرضها، ودون أن يُحصوا عدد النّساء القتيلات والأرامل واليتيمات، ودون أنْ يفطنوا إلى أنّ الذين أسّسوا جمعيّات للرّفق بالحيوان هم أحفاد الذين أباحوا صيد الإنسان على شواطئ إفريقيا وأخذه عبداً ، ودون أن يعوا أنّ حريّة التّعبير لا تُدعم من قِبَل أصحاب الشّعار إلاّ إذا كانت لإثارة الشّغب في البلدان التي لا تخضع لإرادتهم من أجل التّدخّل لإسقاط الحكومات فيها، ودون أن يلاحظوا ما يَحُلّ بالذي يُعبّر عن رأيه فيما يتعلّق بالعدوان الصّهيوني على العرب وعن حقّ الفلسطينيين في أرضهم، أليس قانون معاداة السّامية أحد إنجازات الغرب المتحضّر، أيجرؤ أستاذ أو صحفي أو كاتب منصف أن ينفي وقوع المحرقة أو يتحدّث عن حقوق الفلسطينيين، وإن حصل ذلك ألا يفصل من عمله ويُضَيَّق عليه ويحاكم محاكمة المجرمين،وللمنبهرين الذين لا تتحمّل ذاكرتهم الرّجوع إلى الوراء كثيراً ليربطوا بين الأشياء أقول: إن كنتم لم تفهموا دور البعثات التّبشيريّة في معرفة الثّغرات التي يمكن من خلالها اختراق الشّعوب، ولم تتساءلوا لماذا لم تحضر منظّمة أطباء بلا حدود لإسعاف جرحى الجيش العربي السّوري خلال هذا العدوان الغاشم على سورية، على الأقل لماذا لم تحضر هذه المنظّمة الإنسانية كما يدّعي خالقوها لإسعاف المدنيين السّوريين الذين سقطوا ضحايا التّفجيرات الإرهابية، إن كنتم لا تُسْعفكم الذّاكرة في العودة إلى الماضي البعيد قليلاً ألمْ تروا بأعينكم في الحاضر القريب جدّاً أصحاب الخُوَذ البيضاء يُسعفون أطفالاً مصابين على أثر تفجيرات صنّعوها بالتّعاون مع الإرهابيين في المناطق التي يُسيطر عليها الإرهابيون كما حصل في خان العسل والغوطة الشّرقيّة ويتّهمون الجيش العربي السّوري بذلك من أجل أن يستَعْدوا العالم ضدّه ويُبرّروا للولايات المتّحدة الأمريكيّة ومن يأتمر بأمرها من أعداء سورية القيام بقصف بعض المواقع العسكرية السّورية لإعطاء جرعة معنويّات للإرهابيين في كلّ مرة تنهار فيها معنويّاتهم تحت ضربات الجنود السّوريين البواسل، وبما أنّ العمل الإنساني يُفترض أنّه يُقدَّم لكلّ النّاس دون تمييز ألم يكن من الحكمة أن يسأل المُنبهرون أنفسهم ، لماذا لم يروا خوذة بيضاء تقوم بعمل إنساني في المناطق التي يتواجد فيها الجيش العربي السّوري ؟.

ما أردناه ممّا تقدّم أن نقول للمُغفّلين من العرب البعيدين عن حدود فلسطين والقريبين منها: إنّ مشروع إنزال العصابات الصّهيونيّة على الشّاطئ الشّرقي للبحر الأبيض المتوسّط هو نفس مشروع نزول أشرار أوروبا على الشّاطئ الغربي للمحيط الأطلسي والهدف واحد، والفارق الوحيد هو أنّ الهنود الحمر كانوا جماعات منعزلة عن العالم قبل ما أسماه الغرب اكتشافاً لعالم جديد، بينما العرب هم أصحاب حضارة مُتجذّرة في التّاريخ ولهم تاريخ طويل في مقارعة المعتدين، ولولا تضحيات بعض العرب الفلسطينيين وبعض العرب المجاورين لفلسطين لَحَلَّ بالوطن العربي ما حلّ بالأمريكيّتين، والدّليل على ذلك أنّ الكيان الصّهيوني حتّى الآن لم يرسم لكيانه خارطةً تُحدّد حدود كيانه لأنّه يعمل على أن تكون كلّ أرض تطؤها أقدام مرتزقته شُذّاذ الآفاق هي أرضه وليست فقط أرض الوعد التّلمودي، عليكم أن تُدركوا أنّ الكيان الصّهيوني هو مسمار جحا في الوطن العربي وفيما يُجاوره.

بما أنّ حديث النّاس اليوم يدور حول قانونية وشرعية توقيع ترامب على إقرار الولايات المتّحدة بسيادة الكيان الصّهيوني على الجولان المحتل نقول مع القائلين: ليس مهمّاً ما وَقّعه ترامب، ولا ما رسمه سايكس وبيكو من خرائط عام ألف وتسعمائة وستّة عشر، ولا مَنْ صوّتَ في الأمم المتّحدة مُعترفاً بقيام الكيان الصّهيوني على أرض فلسطين عام ألف وتسعمائة وثمانية وأربعين، ولا قانون الاستيلاء على أملاك الفلسطينيين الغائبين الذي سنّه الصّهاينة – تصوّروا المهزلة والاستهتار بعقول النّاس، هم طردوا أصحاب الأملاك ثمّ اعتبروهم غائبين ثمّ أعطوا لأنفسهم حقّ الاستيلاء على تلك الأملاك – وليس مهمّاً نقل سفارة الولايات المتّحدة إلى القدس واعتبار القدس عاصمة للكيان الصّهيوني، وليستْ مُهمّةً قرارات عصبة الأمم ولا قرارات الأمم المتّحدة، المهمُّ:ماذا قال العرب وماذا فعلوا، ونَخُصُّ بذلك حُكّام العرب – ألم يكن الملك عبد الله قائداً لجيوش العرب لإنقاذ فلسطين عام ثمانية وأربعين وتسعمائة وألف في حين القائد الفعلي لتلك الجيوش كلوب باشا البريطاني -. أنا أوقّع مع أستاذي الأستاذ دريد لحّام على منح ولاية كالفورنيا للمكسيك وأُهديها زيادة أملاك جدّي حسن قنص في ولاية نيوجرسي، ازدادي نعيماً يا مكسيك، فحال ترامب كحال الفرزدق عندما تَوَعّد مربّعاً فجاءه رَدُّ جرير: زَعَمَ الفرزدق أنْ سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا مربع.

ونحن نقول لترامب وللصّهيونية العالميّة ولكلّ الذين نهبوا خيرات بلادنا وساعدوا الكيان الصّهيوني على اغتصاب أرضنا: حقّنا لن يموت، صحيح أنّ كبارنا يموتون ولكنّ صغارنا لا ينسون وأنتم ترونهم في قوافل الشّهداء، سنُحرّر كلّ شبر من أرضنا المحتلة، وسنطالبكم عندها بدفع قيمة ما سرقتموه من محاصيل أرضنا ومن مياهنا، وسنطالبكم بالأضرار التي ألحقتموه ببيوتنا وبأجور البيوت التي سكنّاها من لحظة احتلالكم لأرضنا وهدمكم لبيوتنا إلى لحظة عودة أرضنا إلينا.

ملحوظة: ما زاد ترامب نَمْرَدَةً وجرأة على حقوق العرب هو أنّه حلب البقرة الخليجيّة بسهولة، ويجهل أنّه عندما يقترب من اللّبوة الشّامية سوف تُمَزّقه إرْباً إرْباً وترمي لحمه للكلاب.

أخيراً نقول للذين زيّن لهم المخادعون الطّامعون بأرضهم وبإذلالهم أسماءً وأنساباً تجعلهم لا يهتمّون لمصير من يجاورهم على نفس الأرض وله ولهم نفس المصير من مثل أمازيغي، فرعوني، فينيقي، كلداني، كردي، شركسي، تركماني، سرياني، سنّي،شيعي، كاثوليكي، أرسوزكسي: هؤلاء المخادعون يستهدفونكم جميعاً، ولا يريدون إلا تفريقكم لإضعافكم لتسهل عليهم السّيطرة على بلادكم وليستمرّوا في نهب خيراتكم، فكلّكم في نظرهم ثيران بيض، فلا تتخلّوا عن نُصرة الثّور الأبيض ظنّاً منكم أنّهم لا يستهدفون بعدوانهم سواه.

الأسبوع الأدبي
جريدة تعنى بشؤون الأدب والفكر والفن
تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق
أسست وصدرت ابتداءً من عام ١٩٨٦

المدير المسؤول: مالك صقور
نائب رئيس اتحاد الكتاب العرب

رئيس التحرير: أ.محمد حديفي

مدير التحرير: د.حسن حميد

الإشراف الفني: نضال فهيم عيسى

رئيس القسم الفني: مها حسن

هيئة التحرير: د. سليم بركات، د. مصطفى العبد الله الكفري، محمد الحفري، علوش عساف، سهيل الديب

المراسلات
الجمهورية العربية السورية - دمشق -ص.ب(3230) - هاتف 6117240-6117241 -فاكس 6117244- جميع المراسلات باسم رئيس التحرير. هاتف الاشتراكات 6117242

ثمن العدد داخل القطر 25 ل.س - في الوطن العربي: 0,5 $ خارج الوطن العربي1$ أو ما يعادله. تضاف أجور البريد للمشتركين خارج سورية

الاشترك السنوي -داخل القطر:أعضاء اتحاد الكتاب العرب 700 ل س - للأفراد2000ل.س -وزارات ومؤسسات2400ل.س - في الوطن العربي:للأفراد6000ل.س أو150$ - للوزارات والمؤسسات 8000.س أو175$-خارج الوطن العربي:للأفراد 20000ل.س أو 360$ - للمؤسسات30000ل.س أو420$ والقيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفي لأمر اتحاد الكتاب العرب -دمشق ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد.

الآراء والأفكار التي تنشرها الصحيفة تعبر عن وجة نظر كاتبها

www.awu.sy

E-mail :
alesboa2016@hotmail.com

للنشر في الأسبوع الأدبي
يراعى أن تكون المادة:
• غير منشورة ورقياً أو عبر الشابكة.
• منضدة ومراجعة ومدققة مع مراعاة التشكيل حين اللزوم، وعلامات الترقيم.
• ألا تتجاوز المادة المرسلة /800/ ثمانمائة كلمة.
• يرفق مع المادة CD أو ترسل عبر البريد الالكتروني hotmail.com@alesboa2016
• يرفق مع المادة الصور المناسبة إذا لزم الأمر.

أعلام

يوسف الخطيب

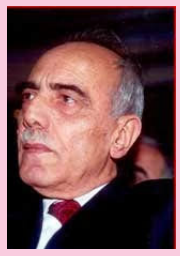

شاعر، قاص
ولد عام 1931 في دورة الخليل(فلسطين).
أنهى دراسته الثانوية في الخليل، ثم تابع تحصيله الدراسي في جامعة دمشق- كلية الحقوق- وتخرج فيها عام 1955.
عمل في مناصب مختلفة في اذاعات: دمشق، فلسطين، الرياض، صوت العرب، القاهرة، الكويت، بغداد، اذاعة هولندا العربية.
وشغل منصب المدير العام لهيئة الاذاعة والتلفزيون في سورية عام 1965، وانتخب نائباً للأمين العام للاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين.
أسس عام 1965 دار فلسطين للاعلام. عضو المجلس الوطني الفلسطيني.
عضو جمعية الشعر.

مؤلفاته:
-1العيون الظلماء للنور- شعر- دمشق 1955.
-2عائدون- شعر- بيروت 1958.
-3واحة الجحيم- شعر- بيروت 1964.
-4عناصر هدامة- قصص- بيروت 1964.
-5ديوان الوطن المحتل- دراسة ومختارات- دمشق 1965.
-6مجنون فلسطين- شعر- دمشق 1983.

آخر الكلام

•أ.محمد حديفي - رئيس التحرير

للجلاء طعمٌ آخر

قبل هذه الحرب الكونية الظالمة التي شُنت على سورية ظلماً وزوراً وبهتاناً كان السوريون يشعلون شوارعهم وأسطحتهم وساحاتهم بحبال الزينة، ويعقدون حلقات الدبكة، ويقيمون الأفراح ابتهاجاً بالسابع عشر من نيسان الذي ترسخ في ذاكرتهم عزة وفخاراً وصموداً؛ إذ أنه ذكرى جلاء المستعمر الفرنسي عن سورية بعد أن قدمت سورية عشرات الشهداء، وخاض أبناؤها أشرس المعارك في ظروف كابدوا فيها الجوع والعطش والتشرد، وتحملوا قسوة الضرائب المفروضة عليهم، وقاوموا مرارة الظلم الذي تسببه هذا المستعمر الذي فاجأته صلابة السوريين وإصرارهم على انتزاع استقلالهم من بين أنيابه عاقدين العزم على مواصلة الصمود والقتال مهما كان الثمن باهظاً والضريبة عالية ومكلفة..

كانت اللحظات الأولى لدخول قوات المستعمر الفرنسي إلى سورية في عام 1920 لحظات فيها الكثير من الحسرة بقلوب السوريين الذين خاضوا في ميسلون معركة الشرف والكرامة، وبالرغم من أن هذه المعركة كانت محسومة النتائج مسبقاً؛ إلا أنها قدمت الصورة واضحة بأن السوريين جاهزون لدفع فريضة الدم تجاه الوطن واستقلاله، وحين أقدم الشهيد يوسف العظمة على مواجهة قوات «غورو» المدججة بالسلاح كان يدرك سلفاً أن نتيجة المعركة لن تكون لمصلحته، وهو وزير الحربية الذي لا يملك من الرجال والعتاد إلا القليل القليل، لذلك قال عبارته المشهورة آنذاك: إنني أعلم بأنني سأخوض مع جيش غورو معركة غير متكافئة، ولكنني أخوضها لكي لا تقول فرنسا إنها دخلت سورية دون مقاومة..

بعد أن احتل غورو دمشق اتبع سياسة الترغيب والترهيب مع السوريين، فمرةً يقدم المغريات بمنح المناصب، ومرةً يثقل كاهل السوريين بفرض الضرائب التي تفوق قدرة المواطن السوري، إلا أن السوريين الذين اكتشفوا ألاعيب المحتل وخاصة حينما عرض على قادتهم استقلالاً شكلياً يخفي خلفه الكثير من الدسائس والمؤامرات، قابلوه بالرفض دون أن يخشوا بطشه وما فعلته طائراته ومدافعه؛ إذ صمدوا أمامها ولم تزدهم هذه الأعمال الوحشية إلا صلابة وإصراراً على طرد هذا المستعمر الغاصب..

انتفض السوريون ضد المستعمر الفرنسي وجيوشه الجرارة، فبدأت الثورة الأولى ضده عام 1922 بقيادة سلطان باشا الأطرش في جبل العرب حينما أقدمت السلطات الفرنسية على اعتقال المناضل أدهم خنجر في دار سلطان باشا الذي كان غائباً عنها، فاندلعت على أثر ذلك معارك دامية مع قوات المستعمر الفرنسي الذي استخدم فيها الطائرات وهدَّم بيت سلطان باشا الأطرش؛ إلا أن الثوار الذين جابهوه أوقعوا في صفوف قواته خسائر كبيرة أذهلته، ورغم توقف الثورة؛ إلا أن سلطات الاحتلال أقدمت على إجراءات وحشية بحق سكان جبل العرب كانت سبباً في اندلاع الثورة السورية الكبرى عام 1925 بعدما عينت السلطات الفرنسية حاكماً طاغية هو الجنرال كاربيه الذي أرسل جنوده لدار سلطان باشا الأطرش ليطلبوا منه موافاة القائد الفرنسي في السويداء، فألقى أبناء الجبل القبض عليهم، ومن هنا اندلعت الثورة في السويداء، وتوالت المعارك الطاحنة أبيدت على أثرها الكثير من الحملات التي حاولت فك الحصار عن القلعة في السويداء.

وكان سلطان باشا الأطرش قد أصدر منشوره الشهير إلى الشعب السوري الذي أعلن فيه بيان الثورة السورية الكبرى ومطالبها، واستجابة لذلك التحقت أحياء الشاغور والميدان بدمشق بالثورة التي امتدت لبساتين الغوطة، كما امتدت لجميع أنحاء دمشق وجبل العرب وجنوب سورية، وتوالت المعارك بين الثوار والقوات الفرنسية..

أمام خسائر الفرنسيين المتلاحقة جندوا عشرات الآلاف من جنودهم ودخلوا بحماية المدرعات والطائرات الأمر الذي مكنهم من قمع الثورة في نيسان 1927 وأجبروا الثوار وقادتهم على المغادرة إلى الأردن وفلسطين ومصر.

تنادى الأبطال من كافة المحافظات السورية، واشتعلت المعارك الضارية في جبل الزاوية بقيادة البطل إبراهيم هنانو، وكذلك ثورة الساحل بقيادة البطل الشيخ صالح العلي واشتعلت الثورات بحمص وحماة وكافة أرجاء سورية فبرز قادة كثيرون من أمثال حسن الخراط ومحمد الأشمر وأحمد مريود وغيرهم كثيرون، أعلنوا أن سورية بكامل رجالاتها ترفض وجود المستعمر الفرنسي فوق ترابها الطاهر؛ الأمر الذي أظهر حقيقتين بارزتين الأولى: إن الشعب السوري بكافة شرائحه وانتماءاته يرفض الرضوخ والاستكانة، والثانية أن هذا الشعب المنتمي لتراب وطنه يرفض تجزأته وتقسيمه مهما اشتد الظلم واستحكم الجوع والفقر، وكبرت المعاناة فهو شعب واحد موحد ضد أية هجمة استعمارية تستهدف ترابه ووجوده.

يحق للسوريين أن يفرحوا ويتباهوا بعيد الاستقلال الذي هو عيد جلاء المستعمر الفرنسي عن أراضيهم في السابع عشر من نيسان عام 1946، وبرغم جميع المنغصات التي كابدها السوريون طيلة ثمان سنوات خلت إلا أن للجلاء زهوته وبهجته لأنه رمز صمود السوريين كل السوريين دون استثناء..

وغداً حينما نكنس من فوق ترابنا الطاهر فلول الإرهابيين سيكون ليوم الجلاء طعم آخر.

ومما يلفت النظر هذا الوفاء من السوريين لأجدادهم الأبطال الذين خلدوهم وقدسوا أسماءهم فسميت مهرجانات أدبية ثقافية تقام سنوياً بأسماء هؤلاء الأبطال مثل: مهرجان صالح العلي في قريته بالشيخ بدر ومهرجان سلطان باشا الأطرش في قريته (القريا). وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على وفاء الأحفاد لمبادئ الأجداد والسير على خطاهم حتى تحرير كامل التراب السوري من كافة الإرهابيين الذين جاؤوا لسفك دماء السوريين وإبادتهم.

mouhammad.houdaifi@gmail.com

إصدارات